ستيفان زفايغ

هل فعلها؟

تليها «ليبوريلا»



ترجمة: يوسف نبيل

مراجعة: رمزي



العنوان الأصليّ لقصّة «هل فعَلَها؟»
War er es ?
Stefan Zweig
عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة
DID HE DO IT?
Stefan Zweig
Translated by Anthea Bell
العنوان الأصليّ لقصّة «ليبوريلا»
Leporella
Stefan Zweig
عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة
Leporella
Stefan Zweig
Translated by Anthea Bell

ستيفان زفايغ

هل فعلها؟

تليها «ليبوريلا»

ترجمة: يوسف نبيل

مراجعة: رمزي بن رحومة



الكاتب: ستيفان زفايغ
عنوان الكتاب: هل فعلّها؟
ترجمة: يوسف نبيل
مراجعة: رمزي بن رحومة

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

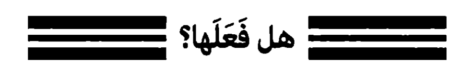
ر.د.م.ك: 978-9938-24-033-7
الطبعة الأولى: 2019



مسكلياني للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



Ottawa, ON. Canada
info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com


هل فَعَلَها؟

من وجهة نظري، أنا على قناعةٍ كاملة بأنّه القاتل، لكن ليس لديَّ دليلٌ قطعيّ. أمّا زوجي فيقول لي باستمرار: «بستاي... أنتِ امرأة ذكيّة، قويّة الملاحظة، لديك عينٌ حادّة، لكنّك تنساقين خلف شعورك فتعتقدين في أمرٍ مّا بسرعةٍ شديدة». حسنًا... زوجي يعرفني منذ اثنين وثلاثين عامًا، وربما هو محقّ فعلاً في تحذيره لي من التعجّل المفرَط في إصدار الأحكام. فما دمتُ لا أملك دليلاً قاطعًا، عليَّ أن أكتم شكوكي، لا سيّما أمام الآخرين. لكنّي كلّما ألتقيه، يخفق قلبي، ويعلو صوتٌ بداخلي قائلاً: «هو القاتل... هو وما من أحد سواه».

لذلك سوف أحاول إعادة بناء الأحداث مرّةً أخرى، إرضاءً لرغبتي لا أكثر.

منذ حوالي ستّة أعوام خلَتْ، بلغ زوجي سنّ التقاعد من عمله كموظّف حكوميّ مرموق في المستعمرات، وقرّرنا أن ننتقل إلى مكانٍ هادئ في الريف الإنجليزي لنقضّي هناك البقية الباقية من عمرنا مستمتعين ببساطة الوجود بصحبة الزهور والكتب، لا سيّما وأنّ أبناءنا قد تزوّجوا منذ زمن. وقع اختيارنا على قريةٍ ريفيّةٍ صغيرة بالقرب من باث[1]. فعند مخرج هذه المدينة القديمة الجليلة ينساب

(1) Bath: مدينة في إنجلترا.

مجرًى مائيٌّ ضيّق، شاقًّا طريقه ببطء من تحت جميع أنواع الجسور ليصبّ في وادي ليمبلاي الدائم الخضرة، وهذا المجرى هو قناة كينيت وإيفون[1]. كانت القناة قد مُهّدت بمهارةٍ وبتكلفةٍ عالية منذ حوالي قرن من السنين لنقل الفحم من كارديف[2] إلى لندن، وحوَت على امتدادها عدّة محطات من الهويس[3] الخشبي بموظفيها المسؤولين عنها. فكُنتَ ترى الجياد تخبّ بخطى بطيئةٍ متثاقلة في الطريق الضيّق على يمين القناة ويسارها جارّةً القوارب السوداء العريضة على طول المجرى المائيّ الواسع. وهو أمر خُطّط له بعناية، ولقد ظلّت القناة التي شغلت مساحةً كبيرةً وسيلةَ نقلٍ جيّدة لفترةٍ طويلة، إذْ لم يكن الوقت أمرًا حاسمًا بعد. ثم ظهرت السكك الحديديّة لنقل الفحم إلى العاصمة بتكلفة أرخص وبطريقة أسهل. فأدّى ذلك إلى تدهور القناة المتعرّجة وتسريح حرّاس الهويس، ولكنّ حالة الترك تلك تحديدًا وانعدام أيّ فائدة من القناة، أضفيا على المكان رومانسيةً وسحرًا. فمن تحت الماء الأسود الضحل تمتدّ الطحالب بكثافةٍ شديدة إلى سطح القناة فيتلألأ بخضرةٍ داكنة مثل المالاكيت[4]... وينساب الزنبق على صفحة الماء الشفيف العاكسة لصورة الزهور المتنامية والجسورِ والسحابِ بدقّةِ صورةٍ فوتوجرافية. وبين الحين والحين، يظهر مركبٌ قديمٌ مكسور نصف غارق على سطح الماء، وقد غطّته النباتات، فيستدعي ماضي القناة أيّام كانت نشيطة،

(1) the Kennet and Avon Canal: مجرى مائي بجنوب إنجلترا.

(2) عاصمة ويلز.

(3) هَوِيس القناة هو [illegible] يستخدم لرفع السفن أو خفضها من مستوى إلى آخر.

(4) نوع من المعادن من فئة كربونات المعادن.

والحال أنّ براغي الهويس قد أصابها الصدأ منذ زمن بعيد وغطّتها طبقةٌ سميكة من الطحالب. ولذلك ماعاد أحدٌ يهتمّ بالقناة، بل إنّ أولئك القادمين من باث لأجل الماء يكادون لا يعرفونها. وعندما كُنّا أنا وزوجي نذرع الممشى المُسطّح الذي اعتادت الجياد قديمًا أن تجرّ عبره المراكب المربوطة بالحبال، كان يحدث ألاّ نلتقي أحدًا لساعات، إلاّ إذا خرق ذلك زوجٌ من العاشقين اختارا أن يلتقيا سرًّا في تلك البقعة النائية لحماية سعادتهما الشابة من ثرثرات الجيران قبل إعلان خطوبتهما أو زواجهما رسميًّا.

كان هذا المجرى المائيّ الرومانسي الهادئ وسط سلاسل التلال هو تحديدًا ما يبعث فينا السعادة، لذلك اخترنا موضع تساقط الماء بنعومة من منحدر باثامبتون إلى القناة عبر مرجٍ خصبٍ جميل واشترينا هناك قطعةً من الأرض في قلب الخلاء. ثمّ بنينا في قمّة المنبع كوخًا ريفيًّا صغيرًا يربطه بالأسفل ممرٌّ جميلٌ من أشجار الفاكهة القديمة والخضروات والزهور يمتدّ حتى القناة، وهكذا يتسنّى لنا إذا جلسنا في شرفتنا الصغيرة المفتوحة على الفضاء الرّحب أن نرى على سطح الماء انعكاس المرج والمنزل والحديقة. كان المنزل مُريحًا وهادئًا أكثر من أيّ مكان آخر حلمتُ بالعيش فيه، فلم أشكُ من شيء سوى قليل من العزلة، وغياب الجيران.

«سيأتون قريبًا». كان زوجي يقول لي مُشجّعًا. ثمّ لا يلبث أن يُضيف «حالما يلحظون مدى راحتنا هنا».

وذلك ما حدث فعلاً، فقبل أن يشتدّ عودُ أشجار الإجّاص

والبرقوق التي زرعنا، ظهرت بشائرُ بناءِ بيتٍ جديدٍ بجانبنا. ظهر أوّلاً بعضُ السماسرة، ثم ماسحو الأراضي، وبعدهم البنّاؤون والنجّارون. وفي غضون ما يناهز دستة من الأسابيع، برز كوخٌ صغيرٌ بشرفةٍ من القرميد الأحمر إلى جانب كوخنا. ثمّ وصلت في نهاية المطاف شاحنةٌ مليئة بالأثاث. وقد ظللنا نسمع ضجيجًا متواصلاً وأصواتَ دقٍّ تخترق الجوّ الهادئ، ولكن دون أن نرى جيراننا الجدد.

وفي أحد الصباحات سمعنا أحدهم يدقّ بابنا. كانت امرأةً جميلةً ونحيلة، ذات عينين مُتألّقتين مُفْعمتيْن بالودّ، لا يتعدّى عمرُها ثمانيةً وعشرين عامًا أو تسعةً وعشرين على الأكثر، قدّمت نفسها إلينا على أنها جارتنا الجديدة، وسألت هل لنا أن نُعيرها منشارًا، لأنّ العمال نسُوا إحضاره. وعندما تجاذبنا معها أطراف الحديث قالت إنّ زوجها يعمل في بنك ببريستول[1]، لكن منذ مُدّة طويلة وهما يُريدان أن يعيشا في مكانٍ ناءٍ خارج المدينة، ثمّ أضافت إنّهما رأيا بيتنا الصغير بينما كانا يسيران مرّةً بجانب القناة في أحد أيام الآحاد، ووقعا في حبّه، ومع أنّ السكن هنا يعني -بالطبع- رحلةً للزوج تستغرق ساعةً من الزمان ذهابًا للوصول إلى العمل، وأخرى إيّابًا للعودة منه، فإنّ زوجها على يقين من إيجادِ صحبةِ سفرٍ جيّدة تجعله يعتاد الأمر بسهولة. في اليوم الموالي رددنا إليها الزيارة. فوجدناها ماتزال بمفردها في المنزل، وقد أخبرتنا بخلوّ بالٍ أنّ زوجها لن يلحق بها إلاّ بعد أن ينتهي كلّ شيء وأنّ بوسعها، حتّى ذلك الوقت، أن تستغني عنه. إذ ليس ثمّة في نهاية المطاف ما يستدعي العجلة. لا أعرف سرّ الشعور الذي انتابني،

(١) مدينة بجنوب إنجلترا.

لكنّي لم أحبّ طريقتها العفوية في الحديث عن غياب زوجها، وكأنّها مبتهجة لذلك. وعندما اختليت بزوجي على طاولة الطعام علّقتُ قائلةً إنّها بدت غير مغرمة بزوجها. فاعترض على نزوعي إلى بناء استنتاجات متسرّعة، مُعتبرًا إيّاها امرأةً لطيفةً وذكيّة وخفيفة الظل، آملاً أن يكون زوجها أيضًا كذلك.

ولم يطل بنا الوقت حتّى التقيناه. كان يوم سبت، وبينما نحن نغادر المنزل للقيام بنزهتنا المسائية المعتادة سمعنا خطو أقدام خلفنا، وحالما التفتنا رأينا رجلاً طويلاً مرحًا يحاول اللّحاق بنا، مادًّا إلينا يدًا ضخمة، حمراء ومُنمّشة، فإذا هو جارنا الجديد. قال لنا إنّه علم بمعاملتنا لزوجته ببالغ اللطف، وإنّه بالطبع ما كان عليه أن يأتي لتحيّتنا بتلك الثياب المنزليّة، دون القيام بزيارة رسميّة أوّلاً، لو لا أنّ زوجته أخبرته بكثيرٍ من الأمور اللطيفة عنّا، فلم يستطع التأخّر عن شُكرنا ولو لدقيقة واحدة، وها إنّه بيننا. اسمُه «جون تشارلستون ليمبلاي».. ومن الطريف في الواقع أن يُدعى المكان «وادي ليمبلاي» على شرفه، قبل أن يُخمّن هو أنه يومًا ما سيبحث عن منزل هنا؟ نعم، هو ذا هنا وكلّه أمل في أن يظلّ كذلك طوال حياته، لو كتب الله له البقاء، فقد أحبّ المكان أكثر من أيّ مكان آخر في العالم. ثمّ إنّه أصرّ على أن يعدنا ويده على قلبه بأن يكون جارًا طيّبًا.

كان يتحدّث بسرعةٍ وسعادة، فتندفع الكلمات من فمه في تيّارٍ جارفٍ يستحيل أن توقفه لتقول كلمةً واحدة. وهو ما أتاح لي الفرصة كي أتفحّصه جيّدًا. كان ليمبلاي رجلاً قويًّا، يبلغ طوله على

الأقل ستّة أقدام، وأكتافه العريضة المعتدلة مناسبة جدًّا لمهنة حفّار، ولكنّه مثل كثير من العمالقة ينعم بسحنة طفوليّة. أمّا عيناه الضيّقتان الدامعتان قليلاً، فكانتا تومضان بثقة وهما تنظران إليك من تحت جفنيْن يميلان إلى الحمرة. فإذا ضحك أثناء الحديث كشف بوضوح عن أسنانه البيضاء الناصعة. يبدو أنّه لم يكن يعرف ما يجب أن يفعل بيديه الضخمتين الثقيلتين، فقد كان يجد صعوبةً بعض الشيء في إبقائهما ساكنتين. حتّى إنّ المرء ليشعر أمامه بأنه يريد أن يربّت على كتفيه بيديه في مودّة، لذلك كان بين الحين والآخر يطقطق مفاصله وكأنّه يودّ التخلّص قليلاً من طاقته المكبوتة.

سألنا عن إمكانيّة السماح له بصحبتنا في جولتنا كما هو، أيْ بمثل تلك الثياب التي كان يرتديها. وعندما قبلنا، سار معنا وأخذ يتحدّث بسرعةٍ في موضوعاتٍ كثيرةٍ لا يربطها رابط. أخبرنا أنه ينحدر من نسل إسكتلندي من ناحية الأم، غير أنّه ترعرع في كندا. وخلال حديثه ذاك كان يشير بإصبعه بين الحين والآخر إلى شجرةٍ جميلةٍ أو إلى منحدرٍ جذّاب، ويقول: «يا للجمال! يا للجمال الفائق الذي لا يُضاهى»... ثم يُعاود الحديث والضحك والإعراب عن حماسته لكلّ شيء دون توقّف. لقد كان ينبعث من ذاك الرجل الضخم القويّ المليء بالحيويّة فيضٌ من الطاقة والسعادة لم يلبث أن اجتاحنا. وعندما فارقنا في نهاية المطاف، شعرنا بلفحةٍ من الدفء المُتأتّي من شخصيّته الحميمة. «منذ زمن بعيد لم ألتق بشخصٍ ذي قلبٍ طيّبٍ مثل هذا الرجل»، قال لي زوجي. مع أنّه، كما أشرتُ إلى ذلك سابقًا، دائمًا ما كان متحفّظًا بعض الشيء، ولا يحكم على الشخصيّات بسهولة.

لم يمرّ وقتٌ طويلٌ على شعورنا بالسرور لعثورنا على جارٍ طيّبٍ مثله، حتى بدأ هذا الشعور يتناقص. ولم يكن مردّ ذلك إلى شيء في أخلاق ليمبلاي بأيّ حال، فهو شخصٌ طيّبٌ إلى أقصى حدّ. بل إنّه يضطرّك بنُبله وإلحاحه في عرض خدماته إلى مُعاودة رفضها في كلّ لحظة. وهو إضافة إلى ذلك رجلٌ مهذَّبٌ بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، متواضع، منفتح، وبعيد عن أن يكون غبيًّا. ولكن ما يجعله كائنًا يصعب تحمّله هو حالة السعادة الصاخبة والمُدوّية التي يعيشها باستمرار. فعيناه تومضان طوال الوقت بالرضا عن أيّ شيء وعن كلّ شيء. وكلّ ما لديه، وكلّ ما يواجهه يبعث في نفسه السرور! زوجته أفضل امرأة في العالم، وزهوره أروع زهور في الكون، وغليونه هو الأفضل، والأمر سيّان مع التبغ الذي يُدخّنه، بل بإمكانه أن يقضي ما يناهز ربع الساعة في محاولة إقناع زوجي بضرورة أن يُحشى الغليون بالتبغ وفق الطريقة التي يعتمدها هو بالضبط، وبأنّ تبغه، مع أنّه أرخص من بعض الأنواع الأخرى، هو الأفضل على الإطلاق. ويظلّ يتحدّث بلا انقطاعٍ وفي حماسةٍ بالغة عن أكثر الأمور تفاهة، وأكثرها بداهة وأقلّها إثارةً للاهتمام. وبالطبع هو يملك دومًا دافعًا كي يوضّح أسباب حماسته بالتفصيل المملّ، إذ أنّ المحرّك الصاخب الدائر بداخله لا يتوقّف البتّة. ومثال ذلك أنّ ليمبلاي لا يستطيع أن يعمل في حديقته دون أن يُغنّي بأعلى صوتٍ ممكن، ولا يمكنه أن يتحدّث دون أن يضحك بصخب وهو يومئ برأسه، ولا يمكنه قراءة الجريدة دون أن يقفز من مكانه حالما تقع عيناه على خبرٍ مثيرٍ من وجهة نظره، وأن يركض لينقله إلى الجميع. أمّا يداه الضخمتان

المنمشتان فتميلان باستمرار إلى المواساة، أسوةً بقلبه الكبير. وليس الأمر مقتصرًا على التربيت على كلّ جوادٍ أو كلبٍ يلتقيه، بل إنّ زوجي، وهو الذي يكبره بما لا يقلّ عن ربع قرن، كان يجد نفسه مُجبرًا كلّما جلس إليه للتحدّث في أيّ موضوع على تحمّل ضربةِ مودّةٍ كَنَدِيّة غير ملائمة يُوجّهها إلى ركبتيْه. ومن مُنطلق طيبة قلبه التي تطغى عليه دومًا وتجعل منه شخصًا عاطفيًّا، على قدر كبير من الإيثار، كان يرى أنّه من الطبيعي أن يعرب الآخرون أيضًا عن اهتمامهم بكلّ شيء، وهو ما يُحتّم على المرء وقتها أن يلجأ إلى كافة الخدع الممكنة ليصدّ تلك الطيبة الملحاحة. لا يحترم ليمبلاي أوقات راحة غيره أو حتى ساعات نومه، ومردّ ذلك ببساطةٍ إلى أنّ إنسانًا مثله ينضح صحّةً وقوّةً لا يمكنه أن يشعر بتعب غيره أو اكتئابه، حتّى إنّك قد تتمنّى في ما بينك وبين نفسك أن يتناول الرجل جرعةً يوميةً من البروميد[1] لتُهدّئ من حيويّته العظيمة وغير المتسامحة، وتنزّلها إلى معدّل طبيعي. ولقد حدث أكثر من مرّة على إثر قضاء ليمبلاي ساعة معنا في القفز هنا وهناك والتحرّك في كل مكان، أن عمد زوجي إلى فتح النافذة بشكل غريزي وكأنّ حضور هذا الرجل الحيوي، والهمجيّ بشكلٍ مّا قد زاد من حرارة الغرفة. ولكنّك عندما تكون أمامه وتنظر إلى عينيه المضيئتين اللتين تنضحان ودًّا وطيبةً، لا يمكنك أن تشعر نحوه بأيّ كراهية... وبعدها فقط تشعر بأنك مُتوتّر وتتمنّى أن يذهب إلى الجحيم. قبل أن نعرف ليمبلاى، لم نتصوّر نحن الطاعنيْن في السن

---

(1) المقصود هنا أملاح البوتاسيوم والصوديوم وكذلك الأمونيوم والسترنتيوم. وهي تستعمل كمهدئات للجهاز العصبي المركزي.

أنّ صفاتٍ محمودةً من قبيل اللطف، وطيبة القلب والصراحة ودفء المشاعر يمكن أن تقودنا إلى الشعور بالارتباك من فيضانها المتطفّل.

لقد فهمت الآن أيضًا ما كنت في البداية أجده غامضًا بخصوص عدم شعور الزوجة بأيّ ضيقٍ على الإطلاق من غياب زوجها وقبولها لذلك برباطة جأش ورضى، فهي قطعًا ضحيّةٌ لمزاجه الرائق حدّ التطرّف. من المؤكّد أنّه أحبّها بشغف، كحبّه لكلّ ما لديه بالشغف ذاته. كان من المؤثّر أن تراه وهو يعاملها بحنان بالغ وعناية فائقة، فليس لها سوى أن تعطس مرّةً واحدة حتّى يهرع للبحث عن معطفها أو يحرّك الجمرات ويضرم النيران. وإن ذهبت في رحلة استكشافية لباث، غمرها بالنصائح وكأنّها ستخوض رحلة خطيرة تصارع فيها من أجل البقاء. لم أسمع كلمةً فظّةً واحدة تسري بينهما، بل على العكس، كان يغمرها بالثناء إلى حدٍّ يصبح معه الأمر محرجًا بعض الشيء. فحتى في حضورنا لم يكن يستطيع الإمساك عن ملاطفتها وتمسيد شعرها، وقبل كلّ ذلك، تعداد محاسنها وفضائلها: «هل لاحظتما من قبل جمال أظافر إيلين؟» يفاجئك بالسؤال، وبالرغم من اعتراضها الخجل يجعلها تعرض يديها. وعليّ وقتها أن أُعرب عن إعجابي بطريقتها في تصفيف شعرها، وبالطبع نحن مطالبون بأن نتذوّق من كلّ كمّيةِ مربّى تصنعها، فهو يرى جازمًا أنها تصنع المربّى بأفضل ممّا يمكنُ لأشهر صانعي المربّى في إنجلترا إنجازه. ولأنّ إيلين امرأة معتدلة إلى حد كبير، فإنّها في مثل تلك الوضعيّات المحرجة دائمًا ما تجلس ناظرة إلى الأسفل، وعليها أمارات عدم الراحة. فتبدو وكأنّها قد زهدت تمامًا في الدفاع عن نفسها ضد سلوك

زوجها العاصف، تاركةً إيّاه يتحدّث ويحكي الحكايات ويضحك دون أن تُعلّق بأكثر من بضع كلمات بسيطةٍ مُتعَبة من قبيل: «حقًّا؟» «يا له من أمرٍ غريب!».

وذات مرّةٍ ونحن في طريقنا إلى المنزل أشار زوجي إليها قائلاً: «هي لا تحيا حياةً مريحة... ولكن لا يمكن للمرء أن يُحمّله الذنبَ تمامًا... إنّه رجلٌ طيّبُ القلب، وربما أمكنها أن تسعد معه».

وقد أجبته وقتها بسرعة ووضوح: «لست على يقين من ذلك... حسب رأيي، من الصعب قبول كُلّ تلك السعادة المتباهية... يا لها من مشاعر متفجّرة! سأجنّ إن عشت كلّ ذاك القدر من العاطفة المحمومة. ألا ترى أنه يقود زوجته إلى التعاسة بحيويته الفائرة الخانقة؟».

فردّ زوجي: «إنكِ تبالغين كعادتك». وأعتقد أنه محقٌّ في ما قاله، فزوجة ليمبلاي لم تكن تعيسةً بأيّ حالٍ من الأحوال، أو بالأحرى لم يكن بوسعها الإعراب عن تعاستها، فبعد كلّ الوقت الذي قضّته معه، ما عادت تستطيع التعبير عن أيّ مشاعر خاصة بها، لأنّها ببساطة مُستنزَفَة حدّ الشلل بسبب حيويّته غير المعقولة. عندما يذهب إلى المكتب في الصباح، وبعد أن تختفي أصداء عبارة وداعه: «إلى اللقاء» عند بوابة الحديقة، كنت ألاحظ أن أوّل شيء تفعله هو الجلوس أو الاستلقاء قليلاً في سلام.... لا لشيءٍ إلاّ لتستمتع بالهدوء من حولها. كان بالإمكان ملاحظة ما يشي بالضجر في حركاتها طوال اليوم... ولم يكن الانخراط في حديثٍ معها أمرًا سهلاً، إذ أنّها بعد ثمانية أعوام

من زواجها بليمبلاي أوشكت على نسيان كيفيّة الحديث عن نفسها. ومع ذلك فقد حدّثتني ذات مرّة عن لقائهما الأوّل. كانت تعيش مع والديها في الريف، وكان هو في أحد الأيّام يتمشّى في نزهة، فالتقى بها وأوقعها في حبه بطريقته الجامحة. ثمّ خطبها وتزوّجا وهي لم تعرفه جيّدًا بعد، ولم تكن تعرف حتّى مهنته. إنّها امرأة هادئة لطيفة لم تقل مرّةً كلمة واحدة، ولا أصدرت مجرّد إشارةٍ تُوحي بأنها غير سعيدة، ولكنّي كامرأة تمكّنت من إدراك مكمن المشكلة في هذا الزواج على وجه الدقّة. ففي عام زواجهما الأوّل لم يُوليا مسألة الإنجاب اهتمامًا كبيرًا، وكذلك في العام الثاني والثالث، ولكنّهما بعد ستة أعوام أو سبعة بلغا مرحلة فقدان الأمل، ما جعل الزوجة تشعر بفراغ كبير، وأمسياتها تضجّ بحماسة زوجها العالية. فكّرتُ، وقلت في نفسي قد تكون فكرة حسنة إن تبنّت طفلاً أو مارست بعض الرياضة أو وجدت وظيفة. إذ يمكن لكلّ هذا الخواء أن يُصيبها بالجنون، إضافة إلى أنّه قد يُشعرها بنوع من الكراهية لهذا المرِح المزعج الذي بوسعه أن يُرهق أيّ شخص عادي. عليها أن تجد أحدًا... أيّ شخص، وإلا سيبلغ شعورها بالتوتر حدًّا لا يُطاق.

سنحت لي الظروف فقمتُ بزيارةٍ كنتُ مَدينةً بها لصديقة قديمة من أيام الشباب انتقلت للعيش في باث منذ أسابيع. انخرطنا في حديثٍ وديّ، ثم تَذَكّرَت فجأة أنها أرادت أن تريني شيئًا ساحرًا، واصطحبتني إلى الفناء في الخارج. في البداية لم أستطع أن أرى وسط هذا الضوء المعتم في السقيفة سوى مجموعة صغيرة من المخلوقات تتكوّم على القشّ، ويزحفُ بعضُها صوبَ بعضٍ، وكأنّها تتشاجر.

إنّها أربعة جراء صغيرة من فصيلة «بولدوج» لم يتعدّ عمرها ستة أسابيع أو سبعة، مازالت تتعثّر في أقدامها الكبيرة، وبين الفينة والأخرى، تحاول أن تنبح. كانت بالفعل ساحرة وهي تخرج من السلّة التي ترقد بداخلها أمهم، فتبدو كأنّها كبيرة فعلاً. التقطتُ أحد هذه الجراء الصغيرة وأمسكت به من شعره الأبيض الغزير. كان لونه بُنّيًا وأبيضَ، وأنفه الأفطس الجميل يخبر عن سلالته المميّزة حسب ما شرحت لي صاحبته. لم أستطع أن أمنع نفسي من اللّعب معه ومداعبته وإثارته حتى عضّ أصابعي عضّةً خفيفة، فعرضت عليّ صديقتي أن آخذه معي إلى المنزل إن أردت ذلك. وأرفقتْ عَرْضها بالقول إنّها تحبّ الجراء جدًّا، ولكنّها على استعداد لتركها إذا كانت تعلم يقينًا أنّها ستذهب إلى مكانٍ مُناسب تحظى فيه بالعناية اللازمة. تردّدتُ في الأمر لعلمي بأنّ زوجي حين فقد كلبه الصغير من قبل أقسم ألاّ يدخُل قلبَه كلبٌ آخر بعد ذلك أبدًا، ولكنّي لم ألبث أن قلت لنفسي إنّ هذا الجرو الصغير الساحر قد يكون هو تحديدًا ما تحتاجه زوجة ليمبلاي الآن، وعلى ضوء ذلك وعدتُ صديقتي بأن أُعلمها بقراري في اليوم التالي. وفي المساء عرضت الفكرة على ليمبلاي وزوجته. لزمت الزوجة الصمت كعادتها، وهي التي من النادر أن تُعبّرَ عن رأيها في شيء، في حين أعرب ليمبلاي عن موافقته بحماسته المعهودة... «نعم... نعم».. هكذا أجابَ، مؤكّدًا أن هذا الأمر كان ناقصًا في حياتها، وأنّ المنزل لا يمكنه أن يكون منزلاً بحقّ دون كلب. بل لقد حاول باندفاعه المعهود أن يقنعني باصطحابه إلى باث في اللّيلة نفسها وإيقاظ صديقتي لتعطينا الجرو، ومع أنّي رفضتُ

هذه الفكرة الغريبة فإنّ ذلك لم يُكلّفه انتظارًا طويلاً، ففي اليوم التالي كان جرو البولدوج الصغير قد وصل إلى منزلهما في سلّة صغيرة، وهو ينبح جرّاء شعوره بالخوف من تلك الرحلة غير المتوقّعة.

لم تأت النتيجة كما توقّعنا، فقد كانت الغاية أساسًا أن أهب سيّدةً هادئة تُقضّي أيّامها وحيدة في منزل فارغ، رفيقًا. ولكن ليمبلاي هو من أشبع احتياجه إلى إظهار شفقته غير المحدودة عبر هذا الجرو الصغير. كانت فرحته بالمخلوق الصغير المضحك فرحةً مفرطة وسخيفة بعض الشيء. وبالطبع أصبح «بونتو» -وهو الاسم الذي أطلقه عليه ولا أعرف سبب هذه التسمية- أجملَ وأذكى كلبٍ في الكون، وما انفكّ يكتشف فيه فضائلَ ومواهبَ جديدة مع كلّ يوم جديد، بل مع كل ساعة! وهكذا، أنفق على صديقه ذي الأقدام الأربعة بسخاء... أنفق على أدواته واشترى أفضل الرسون والسلال والكمّامات وسلطانيات الطعام والألعاب والكرات والعظام. أيضًا، درس ليمبلاي بعناية كافة المقالات والإعلانات في الصحف التي تقدّم معلومات عن العناية بالكلاب وتغذيتها، وقام بالاشتراك في إحدى مجلات الكلاب لتمكّنه من تحصيل معرفة عميقة بها. ويمكن القول إنّ قطاع الخدمات المتعلّقة بالكلاب -وهو الذي يجني مبالغ طائلة من محبي الكلاب المتحمّسين- وجد في ليمبلاي زبونًا جديدًا مثاليًّا، إذ لم يكن جارنا يتردّد في المسارعة بكلبه إلى الطبيب البيطري لأبسط الأسباب وأتفهها. وقد يحتاج المرء إلى كتابة مجلّدات إذا أراد أن يصف مقدارَ الإفراط الغبي الذي نجم عن هذا العشق الجديد لليمبلاي. فكم من مرّة سمعنا نباحًا عاليًا من منزل جيراننا، ليس

من الكلب، بل من صاحبه المستلقي على الأرض في محاولةٍ لتبادل حديث لا يمكن لأحد أن يفهمه مع حيوانه المدلّل! إضافة إلى إيلائه الكلب عنايةً فاقت عنايته بنفسه، منفّذًا بجديّةٍ كافّةَ نصائح الخبراء بخصوص النظام الغذائي للكلاب، حتّى إنّ بونتو كان يأكل أفضل من ليمبلاي وزوجته، وقد حدث مرّةً أن ذكرت الصحف شيئًا ما عن انتشار التيفويد في مكانٍ بعيدٍ جدًا عن مكاننا، فمُنح الكلب دون سواه مياهًا معدنيّة من أجل الشرب. وإن تجرّأ برغوث سافل على الاقتراب من الجرو المقدّس وجَعَلَهُ يحكّ جلده، أو عضّه بطريقة غير لائقة، فإنّ ليمبلاي يتولّى باهتياج مُهمّة البحث عن البرغوث في جسد جروه. ويمكنك وقتها أن تراه مُرتديًا قميصه دون معطف، وقد انحنى على دلو ماء ومُطهّرٍ من الجراثيم، وانهمك تمامًا في العمل بالفرشاة والمشط حتى يطرد هذا الضيف غير المرغوب فيه من جسد جروه، دون أن يرى في ذلك حرجًا أو حطًّا من الكرامة. والحقيقة أنّه لا يمكن لشيءٍ في هذا العالم أن ينال عنايةً فائقة وبمثل ذلك الودّ كالتي نالها بونتو. أمّا الفائدة الوحيدة المجنيّة من هذه الحماقات منذ ظهور الجرو كموضوع جديد تنصبّ عليه كامل طاقة ليمبلاي العاطفيّة، فهي تحرّرنا نحن وزوجته من قدرٍ لا بأس به من غزارة هذه الطاقة، إذ أنّه أصبح يستغرق ساعاتٍ في التجوّل مع كلبه ومحادثته، حتّى وإن لم يحُل ذلك دون زجرة الكائن ذي الشعر الكثيف كما يشاء في المكان من حوله، ولقد كانت السيدة ليمبلاي ترقب زوجها مُبتسمة وهو يؤدّي طقوسه اليومية على مذبح معبوده ذي الأقدام الأربع دون أن تشعر بأدنى قدر من الغيرة. فكلّ ما تحرّرت منه هو الإفراط لا

غير، إذ واصل ليمبلاي إغداق الحنان والرقة عليها، فلم نجد بُدًّا أنا وزوجي من الإقرار بأنّ المدلّل الجديد في المنزل قد يكون جعل زواجهما أسعد من ذي قبل.

في الوقت نفسه كان بونتو يكبر أسبوعًا تلو الآخر. ليتحوّل من جروٍ صغيرٍ ذي ثنايا كثيرة في جلده إلى حيوانٍ قويٍّ له صدرٌ واسع وفكّان صلبان ومؤخّرة مشدودة نظيفة دائمًا. كان كلبًا معتدل المزاج، لكنّه عندما وعى جيّدًا سيطرته على المنزل أصبح رفيقًا أقلّ لطفًا، واتّسم سلوكه بالعناد والغطرسة، ذلك أنّ الحيوان الذكيّ لم يستغرق وقتًا طويلاً ليدرك أن سيّده -أو بالأحرى عبده- سيعفو عن أيّ حماقة يرتكبها فبدأ أوّلاً بإبداء قلّة الطاعة، ثمّ لم يلبث أن راح يتصرّف بطغيان، رافضًا من حيث المبدأ أن يقوم بأيّ فعل قد يُظهره في هيئة الخانع. والأسوأ من كل ذلك أنه ما عاد يسمح بالخصوصية لأحد داخل المنزل حتّى صار القيام بشيء دون حضوره، أو بالأحرى دون إذنه مستحيلاً. فإذا سمع أحد الزوار ينادي اندفع بانتهازيّة صوب الباب وهو يعلم جيّدًا أن ليمبلاي المطيع سوف يسارع بفتحه من أجل الضيف، ومن ثَمَّ يقفز بونتو بفخر على الأريكة دون أن يُحيّي الزوّار ولو بنظرة سريعة. مُثبتًا لهم أنّه السيّد الحقيقي لهذا المنزل ومحلّ المهابة والتوقير. وبالطبع لم يكن مسموحًا لأيّ كلب آخر أن يقترب حتى من سياج الحديقة، أمّا بعض الأشخاص الذين لا يحبهم، وهو ما يعبّر عنه بالنباح عليهم، فكانوا يُضطرّون إلى وَضع زجاجات اللبن أو البريد خارج البوابة بدلاً من جلبها مباشرة إلى داخل المنزل. وكلّما أزلّ ليمبلاي نفسه بهذا الشغف الطفولي بحيوانه المستبدّ،

ازدادت معاملة بونتو له سوءًا، بل إنّه -وهذا ما يصعب تقبّله- ابتكر نظامًا سلوكيًّا وضّح من خلاله أنّ قبوله التدليل والمديح الحماسي، لا يعني التزامه بأي نوع من أنواع العرفان بالجميل نظير تلك الهبات اليومية. ومن منطلقٍ مبدئيّ كان بونتو يتعمّد جعل سيده ينتظر كلّما نادى عليه، وفي نهاية الأمر بلغ هذا التغيّر السيء الذي طرأ على الكلب أقصاه إذ أصبح يقضّي يومه كلّه في مطاردة الدجاج والقفز في المياه، كما يفعل كلبٌ كريم النسب لم يُدرَّب بعد على الطاعة، ملتهمًا بشراهة كل ما يجده في طريقه، ومنغمسًا في لعبته المفضّلة ألا وهي قلب السلال وأوعية الغسيل الموجودة عند المنحدر المفضي إلى القناة حتى تسقط في المياه، يفعل ذلك بخبثٍ مُبيّت وقوّة قنبلة صغيرة، ثمّ يتبختر حول النساء والبنات القائمات على الغسيل ويستدعيهن بنباح النصر، ليستعدن الغسيل من الماء قطعة قطعة، حتّى إذا حان وقت عودة ليمبلاي من عمله، كفّ هذا الممثّل البارع عن لهوه المفعم بالحيوية، وانتحل هيئة سلطان، وهو يتسكّع بكسل في المكان، منتظرًا عودة سيّده دون أن يُبدي أدنى درجة من أشكال الترحيب به عند وصوله، عالمًا أنه سيرتمي عليه قائلاً بشوق: «مرحبًا يا بونتو» حتّى قبل أن يقوم بتحيّة زوجته أو خلع معطفه. وفي المُقابل لا يجيب هو بأكثر من هزّة ذيل. إلاّ أنّه من وقت إلى آخر يجود على سيّده بأن ينقلب على ظهره عارضًا عليه بطنه الناعمة ليداعبها، ولكنّه حتى في تلك اللحظات اللطيفة يحرص على ألاّ يصدر أي صوت ينبئ عن شعوره بالمتعة. وما على خادمه المتواضع إلاّ أن يمتنّ له لأجل الجميل الذي أسداه إليه بقبوله اهتمامه. ومن الممكن طبعًا أن تقطع دمدمته

الحديث فجأةً وكأنّه يقول: «كفى!» فتنتهي اللعبة. عدا ذلك كان على ليمبلاي في كلّ مرّة أن يلتمس منه تناول الكبد المفروم الذي يطعمه إيّاه قطعةً قطعة. ويحدُث أحيانًا أن يكتفي الكلب بشمشمة الطعام وازدرائه، رغم كلّ محاولات إقناعه بأن يستلقي ويأكل، لا لشيء إلاّ ليُؤكّد أن تناول هذا العشاء الذي يقدّمه له عبده ذو القدمين لا يُمثّل إغراءً دائمًا. فإن دُعي للتَجوُّل في الخارج انبرى يتمطّى ويتثاءب بفم مفتوح على آخره -حتّى ليمكنك أن ترى تلك البقع السوداء داخل حلقه- في إصرارٍ دؤوبٍ على فعل أمرٍ يوحي من خلاله بأنّه لا يرغب في الخروج وبأنه سوف يترك الأريكة إكرامًا لليمبلاي ليس إلاّ.... لقد أتلف التدليل المفرط سلوكه تمامًا، فصار يختلق ما لا حصر له من الحيل ليتيقّن من اتخاذ سيّده مظهر المتسوّل المتوسّل إليه. والحقّ أنّ شغف ليمبلاي الذليل أقرب إلى الإخلاص الذي نجده عادةً لدى الكلاب، من سلوك الكلب المتمرّد نفسه، ذاك المتقمّص دور باشا شرقيّ بأداءٍ مسرحيٍّ فذّ.

بمرور الوقت ما عدنا، أنا وزوجي، نحتمل السلوك الشائن للكلب المستبد. ولأنه كلب ذكيّ لاحظ قلّة احترامنا له، وحرص على أن يرينا استنكاره لذلك بأوضح طريقةٍ ممكنة. لا يمكن إنكار أنه كلب ذو شخصية مميزة. فمنذ طردته خادمتنا من الحديقة إثر تركه بطاقة زيارته المميزة[1] في أحد أصص الورد، توقّف نهائيًّا عن التسلّل عبر الحاجز السميك الذي يفصل منزلنا عن منزل ليمبلاي، ولم يُجدِ إلحاح جارنا ولا إغراؤه له في إقناعه بأن تطأ قدماه منزلنا مرّةً

(١) يقصد فضلاته.

أخرى. ولئن سُررنا بإعفائنا من زياراته، فإنّ أكثر ما كان يُحرجنا هو أن نلتقيه بصحبة ليمبلاي وهما يسيران في الطريق أو خارج المنزل ولا يستطيع الرجل الطيّب المولع بالمحادثات الوديّة أن يتحدّث إلينا، والسبب أنّ سلوك الكلب العدوانيّ يجعل الأمر مستحيلاً. فبمجرّد انقضاء دقيقتين يبدأ بونتو في العواء بغضب، ثمّ يُتبع ذلك بنطح قدمي ليمبلاي وكأنه يقول: «توقف عن هذا... لا تتحدّث مع هؤلاء الناس البغيضين». ولَكَم أشعر بالأسف وأنا أقرّ بأن ليمبلاي كان دائم الاستسلام له. صحيح أنّه يحاول أوّل الأمر أن يُهدِّئ من هذا الحيوان المتمرّد باستجدائه قائلاً: «دقيقة واحدة وسننصرف حالاً»، ولكن إذْ لا يجدي ذلك مع الطاغية نفعًا ينتهي الأمر بخادمه التعس إلى وداعنا وهو يشعر بالخزي والارتباك، ثمّ يهرول الحيوان المتغطرس بعيدًا، رافعًا مؤخرته بفخر، معلنًا النصر وقد استعرض قوّته غير المحدودة. ومع أنّي لست امرأة عنيفة، فإنّ يديّ كثيرًا ما تلهّفتا لجَلد هذا الحيوان المدلّل بالسوط ولو جلدة واحدة.

تمكّن بونتو - وهو الكلب العاديّ جدًّا- عبر هذه الوسائل من بث الفتور في العلاقة الودية التي كانت تربطنا بجيراننا إلى حدٍّ كبير. وقد شعر ليمبلاي بضيقٍ واضحٍ جرّاء ذلك، وهو الذي لم يعد بإمكانه أن يسقط علينا كالنيزك كما اعتاد أن يفعل كلّ خمس دقائق، أمّا زوجته فبدت منزعجة وهي ترى كم كان إخلاصُ زوجها الذليل للكلب سخيفًا في أعين الآخرين. وبمرور عام في مثل تلك المناوشات، ازداد الكلب جرأةً وتطلّبًا -إذا صحّ التعبير- وفوق كلّ هذا، أصبح أكثر براعةً في إذلال ليمبلاي، حتّى حدث ذات يوم

تغيير أدهش الجميع على حدّ السواء، تغيير أسعد البعض منّا، لكنّه كان مأساويًّا بالنسبة إلى الطرف الأكثر تأثرًا به.

بدأ الأمر حين غلبتني نفسي ولم أتورّع عن إخبار زوجي بأنّ السيّدة ليمبلاي تبدو منذ أسبوعين أو ربّما ثلاثة مسكونةً بالخجل على نحوٍ غريب، إلى حدّ تجنّب أيّ حديثٍ ممكن معي. فنحن كأيّ جارتين تربطهما علاقة طيّبة يحدث أن تستعير إحدانا من الأخرى بعض الأغراض المنزليّة بين الحين والحين، وهو ما يُتيح لنا فرصة مناسبة لتبادل حديث ممتع. ولقد أحببت هذه المرأة الهادئة المتواضعة بالفعل... غير أنّني لاحظت مؤخّرًا تحفّظًا من جانبها في الاقتراب منّي، مُفضّلةً إرسال الخادمة كلّما أرادت أن تطلب شيئًا. فإذا حصل أن تحدّثت إليها، انتابها خجلٌ واضح وسعت جاهدة إلى تجنّب التقاء عينيّ بعينيها. وعلى ضوء ما سلف ذكره أقنعني زوجي لما يُكِّنه لها من مودة خاصة، بأن أذهب إليها وأسألها مباشرة عمّا إذا كنّا أسأنا إليها دون أن ننتبه إلى ذلك قائلاً: «على المرء ألاّ يدع جفوة بسيطة من هذا القبيل تتسلّل إلى علاقته بجيرانه... فربما كان الأمر عكس ما تخشينه تمامًا، وهو الأرجح عندي... لعلّها تريد أن تطلب منك معروفًا ولا تقوى على استجماع شجاعتها».

عملتُ بنصيحته وذهبتُ إلى منزل ليمبلاي، فوجدت جارتي جالسةً على مقعد بالحديقة، شاردةً تمامًا حتى إنّها لم تنتبه إليّ وأنا أقترب منها. وعلى الفور وضعت يدي على كتفها وقلتُ لها بصراحة: «سيّدة ليمبلاي.. أنا امرأة عجوز، وليس لك أن تخجلي منّي. دعيني

أتحدث أوّلاً، إن كنتِ تشعرين بالضيق منّا لسببٍ مّا أرجو أن تُطلعيني عليه».

اندهشت المرأة الصغيرة المسكينة، وسألتني كيف لي أن أفكّر في أمرٍ كهذا مُوضّحة أنّها امتنعت عن زيارتي بسبب... وفي لحظة احمرّت خجلاً وبدلاً من مواصلة الحديث، أخذت تنشج، لكنّ نشيجها كان سعيدًا وفخورًا إن جاز التعبير. وفي نهاية المطاف أخبرتني بكل شيء. والقصّة أنّها بعد تسعة أعوام من الزواج بلغ بها اللأمر حدّ فقدان الأمل تمامًا في أن تصبح أمًّا، وفي الأسابيع الأخيرة السابقة لزيارتي لها تنامى اعتقادها في إمكان حدوث هذا الأمر غير المتوقع ولكنّها لم تجد ما يكفي من الجرأة لتصديق ذلك حتّى ذهبت أوّل أمس إلى الطبيب في سريّة تامّة، وتيقّنت من صحّة تخمينها، لتبقى المشكلة في عدم استعدادها لإخبار زوجها، وهو ما علّلته بالقول: «أعلم كيف سيكون وقع هذا عليه». كانت خائفة من فرحته المفرطة، فلم تلبث أن أضافت: «أليس من الأفضل أن...» ولم تُسعفها الشجاعة لتطلب منّا ما تريد بوضوح، والسؤال الذي أرادت طرحه هو: هل لنا أن نتفضّل وننوب عنها في إبلاغه بهذا الخبر؟

قلت لها: «يسعدنا القيام بذلك». وحين سمع زوجي بالاقتراح وافق عليه وانطلق في الإعداد له بفرحة شديدة، فترك رسالة لليمبلاي يطلب فيها منه الحضور إلينا حال عودته من مكتبه، وبالطبع هرع الرجل الطيّب إلينا دون أن يخلع معطفه، وقد تملّكه قلقٌ شديد. كان واضحَ الخشية من فرضيّة حدوث مكروه مّا في منزلنا، وفي الوقت

ذاته مسرورًا لأنّه سيحرّر بعض الطاقة المحتبسة داخله بإضهار مدى استعداده لإسداء المعروف لنا بودّ ورغبة حقيقيّين. وإذ وقف حابسًا أنفاسه سأله زوجي أن يتفضّل ويجلس عند المنضدة، ولكنّه شعر بالانزعاج من هذا السلوك البالغ التهذيب، حتّى لم يعد يدري ماذا يفعل بيديه الكبيرتين الثقيلتين والمنمّشتين.

استهلّ زوجي الحديث قائلاً: «ليمبلاي، بينما كنت أفكّر فيك مساء أمس قرأتُ قولاً مأثورًا في كتاب قديم مفاده أنّ على المرء ألاّ يُفرط في التمنّي، وأن يكتفي بأمنيةٍ واحدةٍ فحسب. فقلت لنفسي ماذا عسى جاري الطيب يتمنّى إن هبط إليه ملاكٌ من السماء مثلاً أو جنيّة طيّبة أو ما شابه ذلك وسأله: ليمبلاي، ما الذي تريده حقًّا من هذه الحياة؟ سألبّي لك أمنية واحدة».

بدا ليمبلاي حائرًا... استمتع بالدعابة، لكنّه لم يأخذها على محمل الجد... ثمّة شعور ثقيلٌ ظلّ يجثم على صدره مُنبئًا إيّاه بأنّ أمرًا مّا سيّئًا يختفي خلف هذه الافتتاحية المهيبة.

«أسرع يا ليمبلاي، واعتبرني جنيّتك الطيبة». تابع زوجي كلامه مُطمئنًا ليمبلاي وقد بدا له تائهًا تمامًا. «أليست لديك أيّة أمنيات على الإطلاق؟».

طفق ليمبلاي ينبش شعره الأحمر القصير بيديه وهو يفكّر بين الجدّ والهزل، وفي نهاية الأمر قال: «إمم... ليس تمامًا... لديَّ كل ما أتمنّاه: منزلي - زوجتي - وظيفتي الآمنة و...» لاحظت أنه يوشك أن يقول: «وكلبي» لكنه شعر في اللحظة الأخيرة بأنّ ذلك لا يلائم

السياق، فأكمل: «نعم... لديَّ كل ما أتمنّاه».

« إذن، ليست هناك أيّة أمنية تودّ طلبها من الملاك أو الجنية؟»

ازداد ابتهاج ليمبلاي في تلك اللحظة، فقد سرّه أن سنحت له الفرصة كي يُعبّر لنا صراحةً عن مقدار سعادته. «لا... ما من أمنية».

«يا للأسف! من المؤسف أنك لا تستطيع التفكير في أية أمنية». قال زوجي ثمّ صمت.

بدأ شعور غير مريح يغمر ليمبلاي جرّاء تحديق زوجي فيه، حتّى إنّه ظنّ نفسه مُطالبًا بالاعتذار له فأضاف:

«حسنًا... بالطبع، مزيد من المال سيكون جيّدًا للمرء... أو ترقية في العمل، لكنّني أشعر بالرضا.. ولا أعلم حقًّا ماذا يمكنني أن أتمنّى».

فردّ عليه زوجي وهو يهزّ رأسه متظاهرًا بالحزن: «على الملاك المسكين إذن ألاّ يُكمل مهمته، فالسيّد ليمبلاي لا يتمنّى شيئًا. حسنًا... من حسن الحظ أنّ الملاك لم يغادر فورًا بل تحدّث أوّلاً مع السيدة ليمبلاي، ويبدو أنّ حظّه معها كان أفضل».

ازداد ليمبلاي ارتباكًا. بدا المسكين كالمغفّل وهو يجلس هناك وعيناه الزائغتان تحملقان في ما أمامه وفمه نصف مفتوح. لكنه استجمع شتات نفسه وسأل باضطراب: «زوجتي؟» لم يكن يفهم كيف لأي شخص ينتمي إليه ألاّ يشعر بسعادة كاملة مثله فاستطرد: «زوجتي... وماذا يمكن أن تتمنّى؟»

«إمم.. ربّما شيء أفضل من الكلب لتعتني به».

عندها فهم ليمبلاي كلّ شيء.. بدا مشدوهًا، ومن فرط السعادة المفاجئة فتح عينيه على اتّساعهما في ردّ فعل غريزي جعل من الممكن رؤية بياضيهما بدلاً من بؤبؤيهما. وفجأةً قفز من مكانه وهرع إلى الخارج حتّى إنّه نسي معطفه، وانصرف دون أن يعتذر بكلمة واحدة، راكضًا كالعاصفة صوب غرفة زوجته وكأنّه إنسان فقد عقله.

ضحكتُ وزوجتي، دون أن نشعر بالدهشة من سلوكه، فقد فعل جارنا الطائش ما توقعناه منه بالضبط.

لكنّ أحدهم شعر بالدهشة... إنّه ذاك الجالس على الأريكة بكسلٍ وبعينين نصف مفتوحتين تومضان في انتظار الإجلال الذي يدين به سيّده له، أو ما يظنّ أنّ سيّده يدين به له... إنه ذلك الطاغية الأنيق المدعوّ بونتو. ولكن ماذا حدث بحق السماء؟ لقد هرع الرجل من أمامه دون كلمةٍ أو إطراء، هرع مباشرةً صوب غرفة النوم، ثمّ تناهى إلى سمع الكلب ضحكٌ وبكاءٌ وحديثٌ وتنهّد يتواتر باطّراد، دون أن يكترث له أحد... دون أن يأبه أحد لبونتو الذي كان يحظى بتحيّة الحبّ الأولى طبقًا للعادة ولما يستحقّه. مرَّت ساعة، ثم أحضرت له الخادمة وعاء الطعام الخاصّ به. تركه بونتو بازدراء. لقد تعوَّد أن يتوسّلوا إليه ويستحثّوه ليأكل ولو انتهى بهم الأمر إلى إطعامه باليد. نبح بغضبٍ في وجه الخادمة. سيعلمون سريعًا أنّهم لا يمكنهم التصرّف بهذه اللامبالاة مع بونتو! ولكن في خضمّ المستجدّات المثيرة لم يكترث أحدٌ منهم له أو حتّى لاحظ عدم

تناوله عشاءه... لقد نسوه تمامًا.. نسوا أنّه موجود... كان ليمبلاي مستغرقًا في الحديث مع زوجته دون توقّف، منهالاً عليها بالنصائح والاهتمام ومسرفًا في ملاطفتها. وفي موجة السرور الأولى لم يلحظ ليمبلاي كلبه على الإطلاق، ولمّا كان الحيوانُ العنيدُ شديدَ الاعتداد بنفسه فإنّه لم يُذكِّر سيّده بوجوده بأيّ فعلٍ من أفعالِ لَفْتِ الانتباه. ربض في إحدى الزوايا وانتظر... «حتمًا ثمّة سوء فهم... خطأ واحد غير مقصود.. خطأ لا يُغتفر». لكنه انتظر دون جدوى. ففي الصباح التالي وبعد أن أطنب ليمبلاي في حثّ زوجته على أخذ الأمور برويّة والامتناع عن بذل أيّ مجهود، حتّى كادت تفوته الحافلة، خرج من المنزل سريعًا دون أن ينبس بكلمة واحدة لبونتو!

لا شك في أن بونتو حيوان ذكيّ، ولكن هذا التغيير المفاجئ فاق قدرته على الإدراك. لقد شاءت المصادفة أن أكون واقفةً عند النافذة وليمبلاي يستقلّ الحافلة، فأرى بونتو وهو يتسلّل من المنزل ببطء شديد فور تحرّكها.. يفعل ذلك في حالةٍ من التأمّل مُتابعًا اختفاءها عن الأنظار. ثمّ يلبث في مكانه نصف ساعة كاملة دون حركة، آملاً أن يعود سيّده ويعوّضه عن الاهتمام الذي نسي أن يبادله إياه في الليلة الماضية. وحتّى بعدها لم يهرع للّعب، بل ظلّ يدور ويدور حول المنزل ببطء طوال اليوم وكأنّه غارق في التفكير. طبعًا لا أحد يعلم كيف يفكّر الحيوان ولا إلى أيّ حدّ، لذا قد يكون تفكير بونتو ضربًا من البحث عن فعلٍ أخرق أتاه فلحقه بسببه هذا الحرمان غير القابل للوصف من النعم التي اعتاد عليها. ومع اقتراب المساء وقبل الموعد الذي اعتاد ليمبلاي أن يعود فيه بنصف ساعة ازداد توتّر بونتو على

نحو ملحوظ وراح يتحرّك عند السياج وأذناه مبسوطتان للخلف، وعيناه مفتوحتان كي يتمكّن من ملاحظة قدوم الحافلة في الوقت المناسب، لكن بالطبع دون إبداء نفاد صبره في انتظار عودة سيّده. وما إن ظهرت الحافلة في موعدها المعتاد حتّى هرع إلى داخل المنزل باتجاه غرفة الجلوس تحديدًا واستلقى على الأريكة كالمعتاد وانتظر.

ومرّةً أخرى يذهب انتظاره سُدًى، مرّةً أخرى يمرق ليمبلاي أمامه دون أن يلحظه، واستمرّ الحال كذلك يومًا تلو آخر. قد يحدث أن ينتبه له ليمبلاي ويمنحه لحظةً عابرة من الاهتمام: «آآه.. هذا أنت يا بونتو» ويربّت عليه أثناء مروره، لكنّ ذلك يجري دون مبالاة... وعلى نحو عارض. لم يعد هناك مزيد من المديح والشغف الذليل... لم يعد هناك مزيد من الاهتمام... ولا مزيد من الألعاب، ولا مزيد من الجولات بالخارج... لا شيء... لا شيء... لا شيء. لا يمكن لوم ليمبلاي الطيّب على هذه اللامبالاة المؤلمة، إذ لم يعد يشغله شيء في العالم سوى الاعتناء بزوجته. حال وصوله إلى منزله عائدًا من العمل يصطحبها إلى أيّ مكان تريده، ويجب ألاّ تتعدى الجولات المسافة المسموح لها بأن تسيرها، وإن بدا أنها ستخطو خطوة سريعة أو غافلة يسندها بذراعه، وزيادة على ذلك هو يشرف على نظامها الغذائي، جاعلاً الخادمة تقدّم له تقريرًا في كلّ ساعةٍ من اليوم. وفي الساعات المتأخّرة من اللّيل، أي عندما تكون زوجته قد نامت يأتي إلى منزلنا كلّ يوم تقريبًا، ويسألني النصح والتشجيع كامرأة ذات خبرة، لا سيّما وأنّه بدأ بالفعل شراء مستلزمات الطفل المُنتظَر من المتاجر الضخمة. يفعل كلّ ذلك وهو يُخالجه شعور دائم بالإثارة. لم يبق متّسع لحياته

الخاصة، أحيانًا ينسى أن يحلق ذقنه ليومين، وأحيانًا أخرى يتأخّر عن عمله بسبب وابل النصائح اليوميّ الذي ينهال به على زوجته ويجعل الحافلة تفوته... لم يكن الخبث إذن ولا عدم الإخلاص وراء تخلّيه عن اصطحاب بونتو في بعض الجولات، أو عدم إيلائه انتباهًا، بل كان السبب ارتباك رجل عاطفي ذي مزاج غير عادي يُركّز كل أحاسيسه ومشاعره وأفكاره على هدف واحد. ولكن إذا كان البشر بما لهم من ملكةِ تفكيرٍ منطقيّ في الماضي والمستقبل، غير قادرين -إلاّ فيما ندر- على تحمّل ضربةٍ خفيفة دون إبداء الاستياء، فكيف يمكن لحيوان أبكم أن يقبل ذلك ببساطة؟ كلّما مرَّت الأسابيع ازداد بونتو عصبيّةً وهيجانًا. لم يكن لكبريائه أن يتحمّل إغفاله والتقليل من أهميته، والحال أنّه السيّد الحقيقي للمنزل. كان بوسعه أن يتصرّف بتعقّل فينحى منحى التملّق والتضرّع لليمبلاي بما يجعله لا محالة يدرك إهماله لواجبه. لكن لبونتو عزّة نفس تأبى التذلّل لأيّ كان. وسيّده من عليه المبادرة بالخطوة الأولى لا هو، لذا لم يجد بُدًّا من اللجوء إلى أنواع الحيل كافّةً عساه يجذب انتباه ليمبلاي له. في الأسبوع الثالث بدأ يُظهر اللّين فجأةً، مجرجرًا قدمه الخلفية اليسرى وكأنّه قد غدا كسيحًا. في الظروف العاديّة ما كان ليمبلاي ليتأخّر عن فحصه في مزيج من الانزعاج والحنان ليتأكّد من وجود شوكة في قدمه. وقطعًا كان سيهاتف الطبيب البيطري بقلق، ثمّ يستيقظ ليلاً ثلاث مرات أو أربع للاطمئنان على حال كلبه. أمّا في تلك الظروف فلا ليمبلاي ولا أحدٌ ممّن بالمنزل لاحظ ادعاء بونتو المرض المثير للشفقة، وإزاء ذلك لم يبق أمام الكلب المغتاظ شيء يفعله سوى

الصبر والاحتيال. وبعد مرور أسبوعين آخرين حاول مُجدّدًا، وهذه المرّة من خلال الإضراب عن الطعام، مُضحّيًا ليومين كاملين بترك الطعام كما هو، ولكن لا أحد شعر بالقلق لفقدان بونتو شهيته، مع أنّه عادةً إذا ترك لقمةً واحدة في طبقه مُعلنًا نوبةً من نوبات مزاجه الحادّ، يهرع ليمبلاي المنتبه لأيّ مُستجدّ ويجلب له بسكويتًا خاصًا بالكلاب أو شريحة سجق. انتهى الأمر إذن بالحيوان المخذول وقد بلغ منه الجوع مبلغه إلى تناول طعامه كاملاً خفية، باستمتاع قليل، وتحت وطأة شعور آسر بالذنب. وفي مناسبةٍ أخرى حاول أن يجذب الانتباه بالاختفاء ليوم كاملٍ فتسلّل بحذرٍ شديدٍ إلى مأوى الدجاج المهجور ليتيسّر له من هناك أن يسترق السمع في رضًى إلى الصرخات القلقة الباكية: بونتو.. بونتو.. أين أنت؟ ولكنْ لا أحد ناداه، ولا شعُر بالقلق لغيابه، أو حتى لاحظه. ونتيجة لكلّ ذلك انهارت روحه المستبدّة، وقبع في أحد الأركان ذليلاً منسيًّا، دون أن يفهم السبب في كل ما يحدث.

أعتقد أنّي كنت أوّل من لاحظ هذا التغيّر الذي لحق بالكلب في تلك الأسابيع. فقد خسر قسطًا من وزنه، ولاح على نبرة نباحه تبدّلٌ واضح، وحتّى جلده الذي كان يُغسلُ جيّدًا كلّ يوم، فَقَدَ لمعانه الحريري، وعوضَ أن يتبختر بحيويّة كعادته رافعًا مؤخّرته بفخر، صار ينسلّ خفيةً كأنّ أحدهم قد جَلَده، فإذا التقيته صدفةً خفض رأسه كي لا تتمكّن من ملاحظة نظرته ثمّ مضى سريعًا. ومع أنّه قد حُطّ من مقامه على نحو يدعو إلى الشفقة، فإنّ كبريائه القديم لم يتحطّم كاملاً، ولذلك كان يشعر بالخزي من مواجهتنا، ولم يبق له

من متنفّس لغضبه سوى مهاجمةِ سلال الغسيل، حتّى إنّه في غضون أسبوع واحدٍ دفع ما لا يقلّ عن ثلاثٍ منها إلى مياه القناة، ليُعلن من خلال عنفه أنه مازال موجودًا ويطلب الاحترام. ولكن حتى هذا لم يُجد نفعًا، ولم يترتّب عنه إلاّ تهديد الخادمات له بالضرب. كلُّ خُدَعه وحيله الماكرة باءت بالفشل: إضرابه عن الطعام، والعرج، والتظاهر بالاختفاء، والبحث الدؤوب عن سيّده... ولقد حاول بكلّ ما لديه من قوّة أن يستجلي الأمر الغامض الذي حدث في ذلك اليوم ولكنّه لم يتمكّن من فهمه.

بعد ذلك تَغَيَّر المنزل وكلّ من فيه تمامًا، وأدرك بونتو اليائس أن لا حول ولا قوة له في مواجهة ما حدث، وما يحدث الآن. لم يساوره شكّ في أنّ شخصًا ما أو قوّةً شرّيرةً وراء ما يجري له. إنّه ضحيّةُ عَدُوّ... عدوّ أقوى منه، عدوّ غير مرئي يستحيل الوصول إليه، ولذلك فإنّ هذا العدوّ... هذا الشيطان الماكر... هذا الخصم الخسيس الذي استولى على كل سلطة بونتو في المنزل، لا يمكن أن يقع فريسة له ليمزّقه إربًا إربًا ويطبق عليه بفكيه حتى يحطّم عظامه. لم يُجْدِ تشمّم الكلب ممرّات المنزل نفعًا، ولا نفعَه السهر والمراقبة، ولا الاستلقاء والانتظار مع إرهاف السمع، ولا السكون في انتظار العدوّ... اللصّ... هذا الشيطان الذي كان -ومايزال- خافيًا عنه. وطوال تلك الأسابيع ظل بونتو يسير عند سياج الحديقة ذهابًا وإيابًا ككلب مختلّ وهو يحاول أن يقتفي أثر عدوّه الشيطاني الخفي.

وقد تمكّن بحواسّه المتأهّبة من الإحاطة بما يجري في المنزل من

إعدادات. لم يفهم طبيعتها بالضبط، لكنّه خمّن أنها على صلة بعدوّه الماكر. أمّا أسوأ ما في الأمر فهو الظهور المفاجئ لسيّدة مُسنّة في المنزل... إنها والدة السيدة ليمبلاي، وقد اختارت منذ قدومها أن تنام مساءً على أريكة حجرة الطعام التي اعتاد بونتو أن يستلقي عليها في راحةٍ كلّما أحسّ بأنّ سلّته المُنجَّدة ليست بالقدر الكافي من الفخامة. بعد ذلك توالى وصول كافّة أنواع المستلزمات للمنزل... شراشف، وطرود وغير ذلك.. «تُرى من أجل من؟» يتساءل بونتو وجرس المنزل يكاد لا يتوقّف دقيقةً عن الرنين معلناً قدوم شخص مّا. ولقد تكرّر ظهور أحدهم وهو رجل ذو ثيابٍ سوداء ونظّارة، تنبعث منه رائحة فظيعة لها سمة غير بشريّة. وفي الوقت نفسه كان باب غرفة نوم سيّدة المنزل يُفتح ويغلق باستمرار، ومن ورائه يتتابع الهمس في غير انقطاع، ومن حين إلى آخر تجلس السيّدتان معًا وتنهمكان في حياكة بعض الأغراض. ماذا يعني كلّ هذا؟ ولماذا طُرد بونتو وحُرِم من حقوقه؟ كل ما تمخّضت عنه تلك التأمّلات نظرةٌ خاوية من التعبير سكنت عينيه. إنّ الفرق بين عقل الحيوان وعقل الإنسان هو أن الأوّل يعيش في الماضي والحاضر فقط، غير قادر على تخيّل المستقبل أو التنبّؤ بما سيحدث. وذاك ما أوقع الحيوان الأبكم في بحور من اليأس، فما يحدثُ يُقضّ مضجعه وهو غير قادر على الدفاع عن نفسه أو المقاومة.

مرت ستّة أشهر على بونتو المستبدّ والمعتدّ بنفسه جعلته يشعر بالإنهاك من كفاحه اللا مجدي ويستسلم في ذل، والغريب في الأمر أني الوحيدة التي استسلم لها. ففي إحدى أمسيات الصيف الجميلة

وبينما كنتُ جالسة في الحديقة وزوجي يلعب الورق بالداخل، شعرتُ فجأةً بلمسةٍ خفيفة وحائرة لجسم دافئ على ركبتي. إنّه بونتو، ولكن بكبرياء مُحطّم. لقد امتنع عن دخول حديقتنا منذ أكثر من عام ونصف، لكنّه في تلك اللّحظة كان يبحث عن ملاذ له في محنته، وكنت أنا هذا الملاذ. لعلّي في تلك الأسابيع وبينما تجاهله الجميع، تحدّثت إليه أو ربّتُّ عليه وأنا أمرّ، ففكّر فيَّ في لحظات يأسه تلك، وعلى كلّ حالٍ لن أنسى ما حييتُ ذاك التعبير المتوسّل والملحاح الذي ارتسم في عينيه وهو ينظر إليّ. إنّ نظرةَ حيوانٍ في أمسّ الاحتياج قادرةٌ على أن تكون أكثر اختراقًا، وربّما أكثر تعبيرًا من نظرة الإنسان، فنحن نعبّر عن أغلب مشاعرنا وأفكارنا باستعمال الكلمات التي نتواصل عبرها، أمّا الحيوان العاجز عن النطق فيُعبِّر عن مشاعره بعينيه فحسب. والحقّ إنّي لم أر قطّ حيرةً يائسة ومثيرة للعاطفة أكثر من تلك التي رأيتها في نظرة بونتو العصبيّة على الوصف، حين كان يُمسّد بقدَمه في رقّةٍ هدب تنّورتي، متوسّلاً، وفي خضمّ تأثّري الشديد أدركتُ أنه كان يقول: «أرجوكِ أخبريني ما سبب تغيّر سيّدي والآخرين تجاهي؟ ما الأمر المرعب الذي يدبّرونه ضدي في هذا المنزل؟ ساعديني.. أخبريني ماذا عليَّ أن أفعل؟». لم أعرف حقًا ما الذي يمكنني فعلُه أمام نظرته المتوسّلة إلاّ أنّني وجدت نفسي أربّتُ عليه دون وعي وأقول بصوت خفيض: «يا لك من بائس يا بونتو... لقد انقضى زمانك... ويجب أن تعتاد على هذا الوضع الجديد اعتيادنا جميعًا على أمور لا تروق لنا». أرهف بونتو السمع أثناء تحدّثي إليه وتحرّكت ثنايا الجلد عند حاجبيه في ألم شديد

كأنّه يحاول أن يخمّن معنى كلماتي. ثم حكّ الأرض ببراثنه دون صبر في إشارةٍ سريعة تشي بالانزعاج مفادها شيء من قبيل: «لا أفهمك! اشرحي لي... ساعديني!» لكنّي كنت أعلم أن لا شيء يمكنني فعله له، ومؤكّدٌ أنّه في جزء عميق بداخله أدرك عجزي عن التهوين عليه فنهض بهدوء واختفى في صمتٍ مثلما ظهَر، دون أن ينظر إلى الخلف.

اختفى بونتو ليوم وليلة كاملين، ولو كان بشرًا لخِفت عليه الانتحار، ثمّ ظهر ثانيةً مساء اليوم التالي في هيئةٍ قذرة وعليه علاماتُ الجوع والبؤس وآثار عضّتين، وأغلب الظنّ أنّه في حالة الغضب واليأس المسيطرة عليه قد هاجم كلابًا أُخرى في مكانٍ مّا. ولكن كان هناك إذلالٌ جديد في انتظاره وهو أنّ الخادمة لم تسمح له بدخول المنزل، وبدلاً من ذلك وضعتْ وعاء طعامه في الخارج عند الباب، ولم تعره اهتمامًا بعد ذلك البتّة. طبعًا ثمّة ظروف معيّنة أدّت إلى تلك الإهانة الشديدة له، ذلك أنّ السيدة ليمبلاي قد وافاها المخاض، فغصّ المنزل بالناس في هرج ومرج. وانزوى ليمبلاي في أحد الأركان بلا حول ولا قوة، محمرّ الوجه، ومرتعشًا من فرط الانفعال بينما كانت القابلة تذرع المكان جيئةً وذهابًا ومعها الطبيب، وحَماة ليمبلاي عند فراش ابنتها تواسيها، والخادمة مشغولة أقصى ما يكون الانشغال. أمّا أنا فقد جئت إلى منزل ليمبلاي وظللتُ أنتظر في غرفة الطعام تحسّبًا لاستدعائهم إيّاي للمساعدة في أي شيء. ولذلك كلّه، رأوا في وجود بونتو إزعاجًا مُحْتَمَلاً، ولكن كيف يمكن لعقل كلب أن يفهم هذا؟ لقد أدرك الحيوان الواقع تحت الضغط أنه طُرِد للمرّة الأولى من منزله، كأيّ متسوّل غير مرغوب فيه. أبقوه بعيدًا

بكراهية عن أمرٍ مّا مُهمّ يحدث داخل المنزل خلف الأبواب المغلقة. لم يكن من الممكن تَخيُّل غضبه، وهو يحطّم العظام التي أُلقِيت إليه بأسنانه القوية وكأنّها عنق عدوه اللامرئي، ثم يُصدر صوتًا أشبه بالشخير... لا شكّ في أن حواسه المرهفة أخبرته بقدوم غرباء آخرين إلى المنزل... منزله هو، إذ أنّه التقط في طريقه رائحة الرجل صاحب الحلّة السوداء والنظّارة... الرجل الذي يكرهه.... ولكن كان هناك آخرون معه. ماذا كانوا يفعلون هناك؟ أرهف الحيوان المهتاجُ السمعَ. التصق بالحائط وأصغى، وصلته أصوات منخفضة وأخرى عالية... أنين وصراخ، وانسكاب ماء، وخطوات مسرعة، وأشياء تنتقل هنا وهناك... صلصلة زجاج وقرقعة شيء معدني.... إنّ أمرًا مّا يجري بالداخل... أمرًا لم يفهمه، ولكنّه شعر دون وعي بأنّه ضدّه. هذا الأمر هو الملوم على إذلاله وخسارته لحقوقه... إنه عدوّ غير مرئيّ... شائن... خسيس... ماكر، وهو بالداخل... وسيكون مرئيًّا أخيرًا... وسيتسنّى لبونتو بعد طول انتظار أن ينقضّ بمخالبه على عنقه ويُذيقه ما يستحقّ. ربض الحيوان القوي بجانب الباب الأمامي مباشرة وعضلاته المشدودة في توتر ترتعش من فرط الانفعال، ربض هناك ليتمكّن من الدخول مسرعًا ما إن يفتحوا الباب... وكلّه عزم على ألاّ يُفلت عدوّه الشرير الذي اغتصب حقوقه وامتيازاته وقضى على راحة باله.

لم يُعر أحدٌ من الموجودين داخل المنزل بونتو اهتمامًا، فقد كنّا جميعًا مشغولين ومنفعلين. كان عليَّ أن أهدِّئ ليمبلاي وأواسيه عقب إبعاد الطبيب والقابلة له عن غرفة زوجته، وهي مهمّة غير

سهلة، ففي تَيْنك الساعتين، وبالنظر إلى قدرته المذهلة على الشفقة، من الممكن أن تتجاوز معاناته معاناة زوجته من آلام المخاض. وفي نهاية المطاف جاءت الأخبار العظيمة، وسمحوا لليمبلاي المشتّت بين الخوف والفرح بالدخول بحذرٍ إلى الغرفة ليرى الوليد، وكان طفلةً صغيرة، حسب ما أعلنته القابلة والزوجة التي غدت أمًّا.

بقي الأب بالداخل مدة طويلة تبادلتُ خلالها حديثًا لطيفًا مع حماته التي حضرت الولادة. وبعد طول انتظار فُتح الباب وظهر ليمبلاي، ومن خلفه الطبيب، وتقدّم بفخر نحونا كي يرينا طفلته، وهو يحملها على يده داخل دثار، ككاهن يحمل القربان المقدّس، وقد تغيّرت ملامح وجهه العريض، الطيب والبسيط، إذ غمرته فرحة عارمة. ظلّت دموعه تنهمر على خديه دون توقّف، ولم يجد من سبيل لمسحها ويداه العريضتان تمسكان بالطفلة كما يُمْسَكُ شيء ثمين جدًّا وهشّ. في الأثناء قام الطبيب المعتاد على مثل هذه المشاعر بارتداء معطفه وهو يقول: «حسنًا.. لقد أنهيت مهمّتي هنا» ثمّ ابتسم وصافحنا ومضى إلى الباب دون أن يتوقّع مكروهًا.

ولكن في تلك اللحظة الفارقة التي فتح فيها الطبيب الباب، دون أن يخطر بباله ما سيحدث، انطلق شيء ما كالقذيفة بجوار ساقيه... شيء كان مستلقيًا خلف الباب متحفّزًا إلى أقصى حدّ. لقد ظهر بونتو في وسط الغرفة مالئًا إيّاها نباحًا غاضبًا وعلى الفور رأى ليمبلاي يحمل جسمًا جديدًا لا يعرفه... يحمله بحنان... إنّه جسم صغير أحمر حيّ يموء كقطة صغيرة وله رائحة بشرية... آها... هو العدوّ إذن...

العدوّ الماكر الخفيّ الذي ظلّ يبحث عنه طوال الوقت... الخصم الذي استنزف كل قوّته... المخلوق الذي بدَّد سلامه! فلينقضّ عليه... ويمزِّقه إربًا. وبأسنان ظاهرة للعيان وثب الكلب على ليمبلاي ليختطف منه الطفلة. أعتقد أننا جميعًا صرخنا في الوقت ذاته، فقد كانت حركة الحيوان القوية مفاجئة جدًا وعنيفة حتى إن ليمبلاي وهو الضخم القويّ تمايل تحت تأثير الصدمة وتداعى صوب الحائط من خلفه، ولكنّه في اللحظة الأخيرة رفع الطفلة المتدثّرة عاليًا حتى لا يصيبها مكروه، فتحركتُ بسرعة والتقطتها منه قبل أن يسقط، وسرعان ما توجَّه الكلب صوبي. ولكن لحسن الحظ كان الطبيب قد عاد فور سماعه صرخاتنا وبسرعة بديهة فائقة رفع مقعدًا ضخمًا، وقذفه صوب الحيوان الهائج فسقط بكل ثقله عليه حتّى إنّنا سمعنا قرقعة العظام، ولئن ظلّ بونتو واقفًا وعيناه محتقنتان بالدم والزبد يتقاطر من فمه فإنّه عوى بألم شديد وتراجع للحظة استعدادًا لمعاودة الهجوم في نوبة غضبه الجامحة، لحظة على قصرها كانت كافية لليمبلاي كي يتعافى من سقطته ويرمي بنفسه على الكلب في غضب مخيف يماثل غضبه تمامًا. وبدأت معركة رهيبة... هبط ليمبلاي بكل قوته وضخامته وثقله على بونتو محاولا أن يخنقه بيديه القويّتين، ثمّ تدحرج الاثنان على الأرض وقد تشابكا... بونتو يعضّ وليمبلاي يحاول أن يخنقه جاثمًا بركبته على صدر الكلب الذي راح يتلوّى محاولاً الإفلات من قبضته. لم نتردّد نحن النساء العجائز في الفرار صوب الحجرة المجاورة كي نحمي الطفلة بينما انضم كل من الطبيب والخادمة للشجار وهجما على الكلب الغاضب. ضرباه

بكل ما وقعت عليه أيديهما، فقعقع الخشب، وصلصل الزجاج... وركلاه بأقدامهما ولكماه حتّى تحول النباح المجنون إلى شخير. وفي النهاية شعر الحيوان بالإنهاك التام وتثاقَلَ تنفّسه فربط الطبيب ساقيه الأماميتين والخلفيتين بمساعدةِ من الخادمة وزوجي الذي كان قد أتى من منزلنا راكضًا حالما سمع الضوضاء. استخدموا رسن بونتو الجلدي وبعض الحبال وكمّموا فمه بقطعة قماش انتزعوها من على المنضدة وبانتهائهم أصبح الكلب عاجزًا تمامًا، وعلى وشك فقدان الوعي، فأخرجوه من المنزل ووضعوه في حقيبة.

في أثناء ذلك كان ليمبلاي يتأرجح كالسكران وهو يتّجه صوب الحجرة المجاورة ليتأكّد من سلامة الطفلة. وجدها سليمة من كلّ سوء وحدّقت فيه بعيونها الناعسة الصغيرة. وزوجته أيضًا لم يصبها مكروه غير أنّها استيقظت من نومها العميق على وقع الضوضاء. وحين احتضن زوجها يديها منحته بصعوبة ابتسامة شاحبة ولكنّها مفعمةٌ بالحنان. وفي تلك اللحظة فحسب عاد ليفكّر في نفسه. كان منظره مريعًا: وجه شاحب، وعينان مذعورتان، وياقة مشرومة، وثياب ممزّقة ومغبّرة. ولَكَمْ انزعجنا ونحن نشاهد الدم يتقاطر من كُمّه الأيمن الممزّق الملقى على الأرض، فما لم ينتبه له ليمبلاي في غمرة غضبه هو أنّه أثناء محاولته خنق الكلب تلقّى عضّتين قويّتين في مناورة يائسة من خصمه دفاعًا عن نفسه. المهمّ أنّه بعد ذلك خلع معطفه وقميصه وضمّد الطبيب يده سريعًا. وفي الأثناء جلبت له الخادمة بعض البراندي، وهو يكاد يُغمى عليه لفرط الإرهاق الذي أصابه من نوبة الغضب وفقدان الدماء، ثمّ ساعدناه بصعوبة على

الاستلقاء فوق الأريكة. وسرعان ما غرق في نوم عميقٍ، لأنّه لم يرتح إلاّ قليلاً طوال الليلتين السابقتين لمولد الطفلة منتظرًا الحدث الجليل بانفعال شديد.

أثناء نوم صاحب البيت فكّرنا في ما عسانا نفعل مع بونتو. قال زوجي: «نطلق عليه النار» وكان على وشك أن يذهب إلى المنزل ليحضر مسدسه، ولكن الطبيب اعترض قائلاً إن واجبه يحتّم عليه أخذ عيّنة من لعاب الكلب وتحليلها في أسرع وقت تحسّبًا لفرضيّة أن يكون الكلب مسعورًا، وإن تأكّد ذلك فثمّة إجراءات خاصة يجب أن تُتخذ لعلاج مُخلّفات العضّات التي تلقّاها ليمبلاي، وإنّ عليه أن يضع بونتو في سيارته على الفور. فساعدناه جميعًا في ذلك. كان الحيوان راقدًا في الخارج بلا حول ولا قوّة وقد أوثق وكُمّم. ولن أنسى ما حييت ذاك المنظر... عيناه المحتقنتان بلون الدم جاحظتان كأنهما توشكان على السقوط من رأسه وهو يصرّ على أسنانه محاولاً إزالة الكمامة عن فمه وعضلاته منتصبة كالأوتار وجسده المكلوم من الألم يرتعش وينتفض بشدة، وجدير بي أن أعترف بأنّنا جميعًا تردّدنا في لمسه رغم تيقّننا من أنّه موثّق بإحكام. لم أر في حياتي كلّها حقدًا وغضبًا كذلك، ولا كراهية تتّقد في عينيْ أيّ كائنٍ حيٍّ كالتي رأيتها في تَيْنك العينين المحتقنتين المتعطشتين للدماء، حتّى إنّي تساءلت دون وعي «ألم يكن زوجي على حق حين اقترح قتل الكلب على الفور؟». ولكنّ الطبيب كان مُصرًّا على اصطحابه،فلم نجد بدًّا من جرّ الكلب الموثّق جرًّا إلى السيّارة رغم مقاومته اليائسة.

بعد الرحيل المشين، اختفى بونتو عن أعيننا لوقت طويل نسبيًا. وقد علم زوجي أن الاختبار أثبت عدم إصابته بالسعار، وأنه ظل تحت الملاحظة لعدّة أيام في معهد باستور، ولمّا كانت عودته إلى مسرح الجريمة مرة أخرى غير مطروحة، انتهى به المطاف لدى أحد الجزّارين بباث كان يبحث عن كلب قوي وعدواني، ولم نعد للتفكير فيه بعد ذلك. فحتى ليمبلاي، بمجرّد نزعه حمّالة الكتف التي ارتداها ليومين أو ثلاثة كي تُسند يده نسي الأمر برمّته. ومع تعافي زوجته من آلام الولادة، تركّزت عاطفته واهتمامه على ابنته الصغيرة دون سواها، ويمكنني القول إنّه كرَّس نفسه لها بتطرّف كما فعل مع بونتو قبل ذلك، بل لقد ازداد حمقًا عن ذي قبل. فصار وهو الرجل الضخم القوي يركع بجانب عربة الطفلة الصغيرة ركوع الملوك المجوس الثلاثة بالمذود عند قدمي الطفل يسوع المُجسَّد في إحدى اللوحات الفنيّة الإيطالية القديمة. وكل يوم... بل كل ساعة... بل كل دقيقة، يكتشف جمالا جديدًا في تلك المخلوقة الوردية الصغيرة، والحقّ أنّها فعلاً طفلة ساحرة. وكانت زوجته الرقيقة الهادئة تبتسم متفهمة عشقه الأبوي للطفلة، بدل عبادته لصنم صديقه ذي الأربعة أقدام، ولقد شُملنا نحن أيضًا بما يجري إذ ألقت تلك السعادة الوارفة والصافية في المنزل المجاور بظلالها على منزلنا.

وكما سبق أن قلت، جميعنا نسينا بونتو تمامًا حتى تذكّرتُه فجأةً في إحدى الأمسيات. كنت وزوجي قد عدنا من لندن في وقت متأخر بعد أن حضرنا حفلاً موسيقيًّا بقيادة برونو والتر[1] لكنّي

(1) مؤلف موسيقي وعازف بيانو ألماني شهير.

لم أستطع أن أخلد إلى النوم. ولست أعلم سبب ذلك، أهو صدى نغمات سيمفونية جوبيتر التي ظللت أحاول دون وعي أن أكرّرها في رأسي أم هو ضوء القمر اللطيف والمعتدل في تلك الأمسية من أمسيات الصيف؟ تركت فراشي، والساعة تشير إلى الثانية صباحًا، ونظرت من النافذة. كان القمر يبحر عاليًا في السماء، كأنّ ريحًا خفيّة تجرفه عبر السحب التي بدت فضّية في غمرة ضوئه، وكلّ مرة يُعاود البزوغ نقيًّا مضيئًا من بين السحب فيعمّ نورُه الأبيض الحديقة بأكملها. كان الصمت مهيبًا، ولو تحرّكتْ ورقةُ شجرة واحدة من مكانها لانتبهت إليها، وهو ما يُفسّر تأهّب حواسّي كلّها فجأةً حالما لاحظتُ في قلب الصمت المطبق شيئًا مّا يتحرّك خلسةً على امتداد السياج الفاصل بين حديقتنا وحديقة آل ليمبلاي... شيئًا أسود مَثَلَ أمامي أثناء تحرّكه بهدوء ولكن بقلق تحت نور القمر. وبانتباه غريزي أمعنت فيه النظر... لم يكن كائنًا حيًّا.. ولا شيئًا ماديًّا... كان ظلاً... مجرّد ظلّ، لكنّه ظلّ كائن حيّ يتحرّك بحذر خلف السياج... ظلّ إنسان أو حيوان. ربّما لا أستطيع التعبير عمّا أقصده كما يجب، ولكن الصمت الماكر الخبيث للكائن المتحرّك خفية أشعرني بالقلق. أوّل الأمر اعتقدت أنه سارق، فنحن النساء كثيرًا ما نقلق من تلك الفرضيّات، كفرضيّة اللصّ القاتل مثلاً... وكنت على وشك الصراخ، لولا أنّ الظلّ ظهر عند قمة المنحدر من حيث يبدأ سياج الحديقة، وراح يتحرّك بجواره في حذر، فأمكنني أن أراه بلحمه ودمه أمام ظلّه... كان كلبًا، كلبًا عرفته على الفور. إنّه بونتو. وكان يتشمّم المكان حول منزل ليمبلاي بحذر وبطء شديدين، وهو على

أهبة الاستعداد للهروب عند أوّل صوت. بدا لي كمن يريد أن يبعث إنذارًا مّا، ولا أعرف لماذا برقت هذه الفكرة في رأسي فجأة، ربّما لأنّ حركته لم تكن توحي برغبته في التقاط رائحة، بقدر ما توحي بأن ثمّة خططًا شريرة تدور في رأسه. والحال أنّه لم يُبق أنفه قريبًا من الأرض ليتشمّم، ولا هو سار باسترخاء عضلي، بل راح يشقّ طريقه ببطء، منبطحًا على بطنه إمعانًا في التخفّي، ومتقدّمًا رويدًا رويدًا إلى الأمام كأنّه يسوق فريسة ما. ودون وعي وجدت نفسي أنحني على النافذة كي أراه بصورة أفضل، ويبدو أنّي بحركتي المنافية للحذر لمست إطار النافذة فصدر عنه صوت خفيف، جعل بونتو يثب من مكانه ويختفي بصمت في الظلام. بدا الأمر لي وكأنّي كنت أحلم واختلقت كل ذلك... إذ كانت الحديقة الماثلة أمامي تحت ضوء القمر فارغة... بيضاء ومغمورة بالنور من جديد، ولكن لا شيء فيها يتحرّك.

لا أعرف لماذا خجلتُ من إخبار زوجي بما حدث، والأرجح أنّ ذلك عائد لخشيتي من أن يكون الأمر كله مجرد خداع حواس. ولكنّي إذ صادفت خادمة آل ليمبلاي على قارعة الطريق في الصباح التالي، سألتها بعفوية عمّا إذا كانت قد رأت بونتو مؤخّرًا، وما إن فعلت حتّى ارتبكت ولاح عليها الاضطراب، إلاّ أنّها بعد تشجيعي لها ردّت بالإيجاب مؤكّدة رؤيتها له في الجوار عدّة مرات وفي ظروف غريبة. بدت خائفة منه ولم تستطع أن تُفصح عن السبب. ثمّ أخبرتني بأنّها منذ أربعة أسابيع مضت اصطحبت الطفلة إلى المدينة في عربتها الصغيرة، وفجأةً سمعتُ نباحًا مرعبًا. وإذا ببونتو داخل عربة نقل بضائع ملك لصاحبه الجزار وقد طفق ينبح باتجاهها، أو بالأحرى

باتجاه الطفلة في عربتها الصغيرة على ما تعتقد الخادمة، بل لقد بدا وكأنّه يهمّ بالقفز، ولكن لحسن الحظ مرَّت العربة بسرعة فائقة فلم يجد إلى ذلك سبيلاً. إلاّ أنّ نباحه الغاضب نفذ إلى أعماقها. طبعًا لم تخبر السيد ليمبلاي بشيء، إذ ما كان لينتج عن ذلك إلاّ مزيد من الإزعاج المجاني، زد عليه اعتقادها أنهم في أمان طالما الكلب بعيدٌ في باث. ولكن منذ بضعة أيام مضت وعند الساعة الواحدة ظهرًا تقريبًا أي إبّان خروجها من المنزل باتجاه الكوخ الخشبي القديم لجلب قليل من الحطب كان ثمّة شيء يتحرّك في الخلفيّة، وبينما أوشكت على الصراخ من فرط الهلع اكتشفت أنه بونتو. لقد كان رابضًا في مكمنه، ثمّ فرَّ سريعًا عبر السياج ودخل حديقتنا، وحينها شكّت في أنه يختبئ هناك بين الحين والآخر وقدّرت أنه كان يدور حول المنزل ليلاً لا سيّما وقد رأت آثار براثنه على الرمل المبتلّ ما يدلّ على دورانه حول المنزل عدّة مرّات بعد تلك العاصفة الليليّة الشديدة.

ما إن فرغت الفتاة من سرد تلك التفاصيل حتّى سألتني: هل تعتقدين أنه يودّ العودة؟ خمّنت: من المؤكد أن السيد ليمبلاي لن يسمح بعودته إلى المنزل ثانية، ومن ناحية أخرى لا أظنّ أنّ بونتو قد شعر بالجوع وهو يعيش مع جزّار، ولو أنّ الأمر كذلك فعلاً لكان ذهب إليها عند المطبخ أوّلاً واستجداها من أجل بعض الطعام. ولمّا كانت خلاصة قول الفتاة أنّ طريقة تسكّعه حول المكان لم تعجبها، فقد عادت وسألتني أيجدر بها أن تخبر السيد ليمبلاي أو على الأقل زوجته أم لا؟ وبعد أن فكّرنا في الأمر سويًّا اتفقنا على أنّنا في حال ظهر بونتو ثانيةً سنخبر سيّده الجديد -الجزّار- حتّى يضع حدًّا

لزياراته، أمّا في الوقت الحالي فعلينا ألاّ نُذكّر ليمبلاي بذاك الكلب الكريه.

وأعتقد أننا أخطأنا القرار، فمن يعلم... ربما كان بوسعنا منع ما حدث في اليوم التالي، أي في ذلك الأحد المريع الذي لا يمكن أن يُنسى أبدًا. يومها مررت أنا وزوجي بآل ليمبلاي وجلسنا جميعًا نتبادل أطراف الحديث على مقاعد مريحة بربوةٍ في الحديقة صغيرة وقليلة الارتفاع. وبالقرب من موضعنا ذاك كانت الأرض المغطّاة بالعشب تنحدر بشدّة صوب القناة، وعربة الطفلة موضوعة على المرج المستوي بجانبنا، وطبعًا لست بحاجة إلى القول إنّ الأب المسلوب العقل ظلّ ينهض كلّ خمس دقائق تقريبًا ويقطع الحديث ليُملّي نظره من طفلته، فهي على أيّ حال طفلة جميلة، وفي ضوء الشمس الذهبي للأصيل كان النظر إليها وهي تتأمّل السماء بعينيها الزرقاوين المشرقتين وتبتسم أمرًا ساحرًا بالفعل. وإزاء محاولتها الإمساك بضوء الشمس المنعكس على ملاءتها بيديها الرقيقتين المرتبكتين أغلِق غطاء العربة عليها. وأبوها في غاية البهجة وكأنّ ما كان يجري أمامه في تلك اللحظة أمر مستحيل الحدوث، وكي نسعده تظاهرنا بأننا لم نر قطّ شيئًا مماثلاً. (وستظلّ هيئتها في آخر لحظة من السعادة مغروسة في ذهني إلى الأبد). بعد ذلك نادتنا السيدة ليمبلاي من الشرفة كي تخبرنا بأنّ الشاي جاهز. فعمد ليمبلاي إلى الطفلة يُحدّثها بهدوء كما لو أن بإمكانها فهمه: «سنعود على الفور... دقيقة واحدة». تركنا الطفلة في عربتها على المرج تحميها أوراق الشجر النديّة من أشعة الشمس الحارقة، وتمشّينا صوب المكان الظليل الذي

اعتاد آل ليمبلاي احتساء الشاي فيه. وجدير بالذكر أنّ المسافة من جزء الحديقة السفلي إلى جزئها العلويّ حوالي عشرين ياردة، وأنّ الناظر لا يستطيع أن يرى من مكانه الجزء الآخر جرّاء الأرجوحة المغطاة بالورود القائمة بين البقعتين. تحدثنا أثناء السير -ولا أهميّة هنا لذكر فحوى الحديث- فبدا ليمبلاي سعيدًا جدًا، وسعادته تلك بالذات كانت في غير موضعها، فقد كنّا في يوم أحد هادئ، جالسين تحت المظلّة، أمام منزل عامر بالخيرات، وفوقنا سماء زرقاء حريريّة. إنّ مزاجه يومها انعكاس لليوم الصيفيّ الجميل.

فجأة شعرنا بالخطر، فقد تناهت إلى آذاننا صيحات حادّة مريعة من ناحية القناة، صيحات نساء وأطفال تنذر بمكروه. ركضنا صوب المنحدر الأخضر يسبقنا ليمبلاي. وكان أوّل ما فكّر فيه هو طفلته، وما زاد هلعنا أنّنا حين وصولنا لم نجد عربة الطفلة التي كانت عند الربوة منذ دقائق قليلة وبداخلها تنعس الطفلة في سلام وأمان، وأنّ الصرخات المتعالية من ناحية القناة بدت أكثر حدّة وهلعًا. هبطنا راكضين نحو الماء، وعلى الضفّة الآخرى رأينا نساءً وأطفالاً يصطفّون بعضهم بجانب بعض وهم يحدّقون في القناة ويشيرون إليها، وفي منظر مريع كانت عربة الطفلة التي تركناها آمنةً سليمةً تطفو مقلوبةً على سطح الماء. ولئن تحرّك أحدهم بقاربه صوبها محاولاً إنقاذ الطفلة، وغاص آخر في الماء للسبب نفسه، فإنّ الوقت كان قد أزف، ولم يستطع أحد أن يجلب جثمان الطفلة من قلب الماء الآسن المغطّى بالطحالب الخضراء إلا بعد مرور ربع ساعة.

لا يمكنني أن أصف الحالة اليائسة البائسة لليمبلاي وزوجته، أو بالأحرى لن أحاول، لأني لا أريد أن أستحضر مجدّدًا تلك اللحظات البشعة ما حييتُ. حضر ضابط الشرطة المسؤول وقد أعلموه بما حدث هاتفيًّا لعلّه يكتشف كيفيّة حدوث هذا الأمر المرعب... أهو إهمال من جانب الوالدين؟ أم هو مجرد حادث؟ أم إنّ في الأمر جريمة؟ أُخرجت عربة الطفلة من الماء ووُضِعت مجددًا في مكانها الأول بالضبط عند الربوة الواطئة حسب تعليمات ضابط الشرطة. وقد اصطحب الضابط المسؤول ضابطًا آخر واختبرا العربة بتمعّن ليريا ما إذا بإمكان لمسة خفيفة أن تدفعها نحو المنحدر أم لا. فكانت النتيجة أنّ عجلات العربة وجدت صعوبة في التقدّم على طبقة العشب السميكة التي تغطّي الأرض. وعلى ضوء ذلك استُبعد احتمال أن يكون الحادث قد نتج عن هبوب ريح مفاجئة مثلاً جعلت العربة تهوي فجأة من الربوة التي كانت مستوية. حاول الضابط أن يدفع العربة ثانية بقوة أكبر شيئًا ما فتحرّكت خطوة واحدة إلى الأمام ثم توقّفت، والحال أنّ المسافة التي تفصلها عن بداية الانحدار حوالي سبع ياردات على الأقل، فضلاً عن أنّها كانت ثابتة في أمان بعيدًا عن المنحدر وفق ما أثبته فحص عجلاتها السميكة. ولم تستجب العربة إلا عندما دفعها الضابط بقوة من على الربوة فبلغت المنحدر وانزلقت عبره، وهو ما يؤكّد أنّ شيئًا ما غير متوقّع قد جعل العربة تتحرّك فجأة، ولكن ما هو هذا الشيء الذي تسبب في ذلك؟

شكَّل الأمر لغزًا... خلع الضابط قبّعته من فوق حاجبيه المتعرّقين وشرع يحكّ رأسه ذا الشعر القصير غارقًا في التفكير. لم يستطع الوصول إلى تفسير مُقنع. سأل عمّا إذا حدث من قبلُ أن تدحرج أيّ جسم ولو كان كُرةً أثناء اللّعب بها من عند الربوة وصولاً إلى القناة من تلقاء نفسه؟ فأكَّد الجميع أنّ ذلك لم يحدث مطلقًا. ثمّ سأل عن إمكان وجود طفل جريء في الجوار أو في الحديقة أراد أن يلعب بالعربة؟ فكانت الإجابة «لا ... لا يوجد أحد كذلك». ثمّ سأل: «هل كان هناك أي شخص آخر بالجوار؟» ومجددًا أجابوه بالنفي. لقد كانت بوابة الحديقة مغلقة، والمارّون حذو القناة لم يروا أيّ شخص ذاهبًا أو عائدًا. وحتّى شاهد العيان الوحيد وهو ذاك العامل الذي قفز على الفور في المياه كي ينقذ الطفلة، قال في ألم شديد والماء يقطر منه إنّه كان يتجوّل وزوجته عند القناة وكلّ شيء على ما يرام، ثم رأى فجأةً العربة تتدحرج على المنحدر من ناحية الحديقة، وسرعتها تزداد أكثر فأكثر لتنقلب فور بلوغها الماء. وما إن تراءى له طفل في الماء حتّى ركض صوب الضفة على الفور وخلع معطفه وحاول أن ينقذه، لكنه لم يكن قادرًا على شقّ طريقه بالسرعة المأمولة وسط تشابك الطحالب المائية الكثيفة... وذاك كل ما يعرفه عن الأمر.

ازدادت حيرة ضابط الشرطة، فعلى حدّ قوله لم تمر عليه من قبل مثل هذه القضية المحيّرة. والسبب ببساطة أنّه لم يتمكّن من فهم سرّ تحرّك العربة قبل تدحرجها. والاحتمال الوحيد الذي بقي أمامه هو أنّ الطفلة نهضت فجأة أو رمت نفسها بعنف على أحد جوانب العربة مما أفقد العربة توازنها. ولكن كان من الصعب أن يصدّق المرء

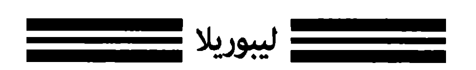
أن ذلك ما حدث، فلم يصدّقه أحد. هل حدث أمر كهذا من قبل لأيّ منّا؟

نظرتُ فورًا إلى خادمة آل ليمبلاي وتلاقت أعيننا... كنّا نفكّر في الأمر ذاته في اللحظة نفسها. فكلّ منّا تعرف أنّ الكلب كره الطفلة، وأنّه تسكّع مؤخّرًا قرب المكان عديد المرات، وكلانا شهدنا دفعه سلال الغسيل المليئة بالثياب إلى داخل القناة. ولذلك أدركت من شحوبها واختلاج شفتيها أنها قد ساورها ما ساورني من شكوك في أنّ الحيوان الماكر -وهو الذي بات من الممكن نعتُه بالشرير- حين وجد فرصة ملائمة للانتقام خرج من مخبئه حال تركنا الطفلة بمفردها لدقائق قليلة ودفع العربة التي تحمل غريمته... دفعها بعنف وسرعة لتتدحرج حتى القناة ويهرب هو كالمعتاد دون أن يُخلّف أثرًا. طبعًا لم تعرب أيّ منّا عن شكوكها جهرًا. لكن خطرت لي هذه الفكرة البسيطة: لو أطلق زوجي النار على الحيوان الهائج بعد هجومه الأوّل لربما كان أنقذ طفلة ليمبلاي وحال دون إصابة والدها بالجنون. ومع أنّ ما توصّلنا إليه من استنتاجات لا يخلو من منطق واضح فإنّه كان يفتقر إلى دليل ملموس. فليس بيننا، أنا والخادمة وباقي الحاضرين، من رأى الكلب يتسكّع أو يركض قريبًا من هناك في ذاك الأصيل. وحتّى لمّا نظرت صوب الكوخ الخشبي الذي اعتاد أن يختبئ فيه ألفيته فارغًا، وليس ثمّة آثار أقدام على تراب الأرض الجافّ، أضف إلى ذلك أنّنا لم نسمع صوت نباح كالذي كان يصدر عن بونتو عادة حين يدفع سلال الغسيل نحو القناة، ولأجل كلّ ذلك لم نستطع أن نجزم بأنّه من قام بتلك الفعلة. صحيح أنّ الأمر أكثر من افتراض

مؤلم إلى أقصى حدّ، وأنّه شك مُبرَّر على نحو مفزع، لكنّه يفتقر إلى الدليل القاطع النهائي.

حتّى الآن لم أستطع التخلّص من هذا الشكّ المريع، بل على العكس، لقد تفاقم بداخلي في الأيام القليلة التالية للحادث حتى بلغ درجة اليقين. فبعد أسبوع من الحادث، وبعد أن دُفِنت الطفلة الصغيرة وترك ليمبلاي وزوجته المنزل لاستحالة تحمّلهما رؤية تلك القناة المشؤومة مُجدّدًا، حدَثَ أمرٌ مّا أثَّر فيّ بقوّة. كنت أتجوّل في باث لشراء بعض الأغراض المنزليّة وإذا بي أمام مفاجأة صادمة.... لقد رأيت بونتو خلف عربة نقل البضائع الخاصّة بالجزار، وأنا التي كنت أفكّر فيه طيلة تلك الساعات المريعة دون وعي... شاهدته يتمشّى على مهل وقد رآني حالما رأيته. فتوقّف على الفور وكذلك فعلت، ثم حدث أمر ظللت أفكّر فيه طويلاً، فمنذ اليوم الذي بدأ فيه فقدان بونتو لمكانته وطوال الأسابيع التي تلت ذلك. كنت أراه باستمرارٍ في حالة من الانزعاج والحزن، يتفادى مواجهتي، وينحني إذا رآني، ويُشيح بعينيه عنّي. أمّا لحظتها فقد رفع رأسه ونظر إليّ مباشرة بلا مبالاة تطفح ثقة، ولست أملك عبارة أخرى أصف بها الأمر سوى القول: «بين عشية وضحاها عاد ذلك الحيوان المتغطرس العنيد كما كان في الماضي». ظلّ واقفًا في وضعيته المستفزّة لدقيقة، ثمّ اتجه نحوي مختالاً، بل راقصًا على امتداد طريقه إليّ ومتظاهرًا بالودّ. توقّف على بعد خطوة منّي وكأنّ لسان حاله يقول لي: «حسنًا.. هأنذا! ماذا ستقولين؟ هل ستَجْرُئين على اتهامي؟

تجمّدت في مكاني.. لم تكن لديَّ القوة لأبعده، ولا لأتحمّل تلك النظرة التي تتقاطر ثقة بالنفس، ولأقُلْ أيضًا و«رضًا»! فابتعدت سريعًا... معاذ الله أن أتّهم بريئًا بجريمة لم يرتكبها، إنسانًا كان أو حيوانًا، ولكنّي منذ ذلك اليوم لم أستطع التخلص من هذه الفكر؛ المرعبة: هو من فعلها... هو ولا أحد سواه.


ليبوريلا

اسمها الحقيقي: كريسينتيا أنا ألويسيا فينكنهوبر. تبلغ من العمر تسعةً وثلاثين عامًا. وُلدت من علاقة غير شرعية، وانحدرت من قريةٍ جبليّةٍ صغيرة في وادي زيلر[1]. أسفل عنوان: «الملامح المميزة» في سجلّ تاريخها الوظيفي كخادمة ثمّة علامة تأكيد في الخانة الخاصّة بعدم وجود أيّ ميزة، ولكن إذا احتاجت السلطات يومًا إلى من يصف شخصيّتها، فلنْ تتردّد أكثر النظرات العابرة في وصفها بأنّها تشبه حصانًا جبليًّا عنيدًا وهزيلاً ولكنّه قويُّ العظام. فهنالك شيء مّا فيها يشبه الجياد بوضوح، شيء يمكن أن نلاحظه في شفتها السفلى الثقيلة المتدلّية ووجهها البيضاويّ الطويل الملفوح بالشمس، المرسومة حدوده بخشونة، وفي نظرتها البليدة الصادرة عن عيون بلا رموش، وبالأخصّ في جدائل شعرها السميكة الملبّدة، المُتهدّلة على جبينها بغزارة. وحتّى طريقة حركتها الموحية بالعناد والصلابة تُذكّر بعنادِ جوادٍ اعتاد السير في قلب ممرّات جبال الألب، حاملاً السلّة الخشبية الكبيرة نفسها بعبوس، صاعدًا وهابطًا عبر الطرق الحجرية الخاصّة بالجياد في الصيف والشتاء على حَدٍّ سواء. وإن حُرّرت كريسينز يومًا من ربقة العمل، فربّما تنعس قليلاً ويداها النحيفتان متشابكتان على نحوٍ غيرِ مُحكَمٍ مع بعض الميل على مرفقيها، وحواسّها

(1) أحد الوديان بالنمسا.

مخدّرة تمامًا كحال الحيوانات في الإسطبل. كلّ ما فيها خشِنٌ، وعديمُ الحيويّة، وثقيل. وزيادةً على أنّها بطيئة الفهم فهي تجد صعوبةً شديدةً في التفكير، فلا تخترق الأفكارُ الجديدةُ عقلَها المليء بالأحراش إلاّ بمشقّةٍ بالغة، كأنّها تُقَطَّرُ قطرةً قطرةً عبر منخلٍ ضيّق. ولكنّها ما إن تفهم أيَّ فكرةٍ جديدة، حتى تتشبّث بها بعنادٍ وغيرة. لم تكن تقرأ الصحف ولا كتاب الصلوات، وكانت الكتابة بالنسبة إليها أمرًا شاقًّا، وكأنّ تلك الحروف الخرقاء المدوّنة في سجلّ مطبخها انعكاسٌ لهيئتها الغريبة الكئيبة الخشنة المفتقرة بوضوح إلى أيّ لمحةٍ أنثويّة. وحتّى صوتُها لا يقلّ خشونةً عن عظامها وحاجبيْها ورِدْفَيْها ويديها، وليس ذلك راجعًا إلى لهجتها التيرولية[1] الخشنة فحسب، بل إلى طبيعة صوتها الأجشّ في حدّ ذاته، ولكنّه نادرًا ما يفاجئك، فهي لا تنطق البتّة بكلمة غير ضروريّة لأحد. وجديرٌ بالذكر أيضًا أنْ لا أحدَ رآها تضحك قطّ، وهو ما يُفاقم شبهها بالحيوان، فالضحكة... تلك الهبة التي تسمح للإنسان بأن يترك العنان لمشاعره لتنطلق بسعادة، لم يمنح الله مثلها لمخلوقاته البكماء، وهي هبة، قد يكون الحرمان منها أصعب من الحرمان من اللغة ذاتها.

تربّت كريسينز في كنيسة أبرشيّتها، لكونها طفلة غير شرعية، وقد جعلوها تبدأ العمل في الخدمة المنزلية منذ سنتها الثانية عشرة. وبعد ذلك عملت غاسلةً للصحون في مطعم متنقّل، ثمّ تركته بعد أن اشتهرت بعنادها وقدرتها الشديدة على العمل كالثّور، لينتهي بها الأمر إلى العمل طاهيةً في أحد النُزل المعروفة باستقبال السيّاح.

(١) نسبة إلى تيرول وهي مقاطعة في غرب النمسا.

كانت تستيقظ في الخامسة صباحًا كل يوم، وتبدأ عملها فتمسح وتنظّف وتشعل المواقد، وتفرك بالفرشاة وتزيل الأوساخ وتطهو وتعجن وتُحضِّر الطعام وتغسل الأطباق والثياب حتّى وقتٍ متأخّر من اللّيل. لم تأخذ عطلةً قَطُّ، ولم تكن تخرج إلى الشارع إلاّ قاصدة الكنيسة... كانت نارُ موقد المطبخ شمْسَها، أما غابتها فآلاف وآلاف من قطع الحطب الصغيرة التي حرقتها على امتداد أعوام عملها الطويلة.

لم يظهر في حياتها رجالٌ، إمّا لأنّ ربع قرن من الصرامة والكدح اليوميّ البليد قد نزع عنها كلّ سِمةٍ من سمات الأنوثة، وإمّا لأنها رفضت بصرامةٍ وصمتٍ كلّ المتقدّمين إليها. كانت متعتها الوحيدة هي جمع المال بمثابرة غير عاديّة، وبغريزة الفأر المميّزة للطبقة الكادحة، كيْ لا يكون مصيرها إذا بلغت من العمر عتيًّا أن تتناول رغيفًا مُرًّا من ملجأ الأبرشيّة الخيري مجدّدًا.

والحقيقة أنّ المال وحده هو ما جعل ذلك المخلوق البليد يترك موطنه الأصلي «تايرول» في عمر السابعة والثلاثين. ففي أحد أيّام العُطل قدمت إلى النزل امرأةٌ خبيرة بعمل الخدمة المنزليّة ورأتها تعمل كالمجنونة في المطبخ والغرف العامة من الصباح إلى اللّيل، فأغرتها بالذهاب معها إلى فيينا واعدةً إيّاها بوظيفة تحصل بمقتضاها على ضعف ما كانت تتقاضاه وقتها من أجر. وطوال الرحلة التي قطعتها المرأتان في القطار لم تنبس كريسينز ببنت شفة، ولا حتّى قبلت اقتراح الركّاب عليها بمودّة أن تضع سلّةَ أغراضها الثقيلةَ على شبكة رفّ

الأمتعة، مُفضِّلةً إبقاءها على ركبتيها مع أنّها تؤلمانها، لا لشيء إلاّ لأنّ عقلها الريفي الأخرق جعل من الخداع والسرقة السِّمَتين الوحيدتين المميّزتين للمدينة الكبيرة. وفي الأيّام القليلة الأولى بمُستَقَرِّها الجديد في فيينا لم تكن تقصد السوق إلاّ مصحوبةً بأحدهم والسبب أنّها تخشى ذلك العدد الكبير من المركبات خشيَةَ البقرة من السيّارة. ولكنّها فيما بعد عرفت طريقها إلى الشوارع الأربعة المؤدّية إلى السوق، وما عادت تحتاج إلى أحد، فصارت تهرول من باب البناية التي يعيش فيها أرباب عملها إلى أكشاك عرض السلع ممسكةً بسلّتها دون أن ترفع عينيْها البتّة، ثم تعود مجدّدًا لتمسح البناية وتضرم النار وتنظّف موقد مطبخها الجديد، تمامًا كما كانت تنظّف القديم، دون أن تشعر بأيّ تغيير. ولقد حافظت على مواعيدها الريفية، فظلّت تأوي إلى فراشها في التاسعة، لتنام وهي فاتحة فمها كحيوان حتّى يوقظها المنبّه في الصباح، دون أن يعلم أحدٌ ما إذا كانت مغرمةً بعملها أم لا، بل ربّما هي نفسها لا تعرف الإجابة. ولم تكن تدنو من أحد ولا تجيب عن أيّ سؤالٍ سوى بكلماتٍ بليدة مثل: «حسنًا جدًّا» وفي حال لم توافق على ما يُقال لها تهزّ كتفيها باستياء. ولم يقتصر تجاهلها على الجيران بل شمل حتّى الخادمات الأخريات في المبنى، فكانت النظرات الساخرة الرعناء لرفيقاتها الخادمات المستهترات تمر بسطح لا مبالاتها الجلديّ تمامًا كالماء. ولم تشذّ عن سلوكها سوى مرّة واحدة لمّا قلّدت إحدى الفتيات لهجتها التيرولية ولم تكفّ عن مضايقتها بسبب صمتها الدائم، فخطفت فجأةً قطعةَ حطبٍ مُشْتعلة من الموقد واتجهت نحوها جاعلةً الفتاة المذعورة تصرخ بلا انقطاع.

ومنذ ذلك اليوم تجنّبها الجميع، ولم يجرؤ أحدٌ على معاودة السخرية من شخصٍ يمكن أن يبلغ به الغضب ذاك المبلغ.

وفي الصباح من كلّ يوم أحد كانت كريسينز تذهب إلى الكنيسة مرتديةً تنّورتها الواسعة ذات الثنيّات، ومعتمرةً قبّعةً ريفيّةً مُسطّحة. ولقد حدث في أوّل يوم عطلة لها بفيينا أن قرّرت التمشّي قليلاً بدل ركوب الترام لا سيّما أنّها كلّما ركبته لم تر شيئًا سوى المزيد والمزيد من الأسوار الحجريّة، غير أنّها طوال رحلتها الاستكشافيّة الحذرة لكثير من الشوارع المذهلة لم تبعد عن قناة نهر الدانوب، إذ لبثت تحدّق في المياه المتدفّقة كأنّها ترقب شيئًا تعرفه، ثم استدارت وعادت من حيثُ أتَتْ، سائرةً بالقرب من البنايات مُتجنّبةً طريقَ العرباتِ بقلق. ومن الواضح أنّ هذه الرحلة الاستكشافية الأولى والأخيرة قد خيّبت آمالها إلى درجةٍ جعلتها لا تفارق المنزل بعدها أبدًا، مُفضّلةً أن تجلس في أيّام الآحاد عند النافذة فتشغل نفسها بالحياكة أو تجلس لمجرّد الجلوس دون فعل شيء. والخُلاصة أنّ العاصمة العظيمة لم تُغيِّر شيئًا من روتين حياتها اليومي المتعب، باستثناء أنها صارت تقبض في آخر كلّ شهر بيديها الخشنتين الباليتين أربع ورقات نقديّة زرقاء بدل الاثنتين القديمتين اللتين كانت تحصل عليهما سابقًا. فلا تنفكّ تفحصها بريبة مطوّلاً ثمّ تبسطها وكأنّها تؤدّي طقسًا مّا، وتمسحها برقّةٍ قبل أن تضعها مع نظيراتها في صندوقها الخشبي الأصفر المنقوش الذي جلبته من قريتها. وكان هذا الصندوق البسيط الثقيل سرّ حياتها ومغزاها، فإذا جنّ اللّيل وضعت مفتاحه تحت وسادتها، أمّا موضعه طوال اليوم فلا أحد يعلم عنه شيئًا.

هكذا كانت طبيعة تلك الإنسانة الغريبة، ولنا أن نطلق عليها إنسانة مع أن سمات الإنسانية في سلوكها ضعيفة وباهتة، ولكن لعلّ المرء في حاجة إلى مثل ذلك الطبع كي يتحمّل العمل في منزل البارون الشاب «فون ف» بكلّ ما يتّسم به من غرابة. لا سيّما وأنّ أغلب الخدم لم يستطيعوا التأقلم مع الأجواء المشحونة بالنزاع لفترةٍ أطول من تلك الفاصلة بين بداية توظيفهم واليوم الذي يُوجَّه فيه إليهم أوّل إنذار. ومن مظاهر ذلك التوتّر الصياح الغاضب الصادر عن سيّدة المنزل، وكثيرًا ما كان يصل إلى درجة هستيرية. والسيدة هي الابنة الوحيدة لأحد أكثر رجال الصناعة ثراءً في إسن[1] وقد التقت بالبارون الشاب في أحد الفنادق المترفة بعد أن جاوزت ريعان الشباب، ومع أنّ أصله النبيل محلُّ شكّ، وكذلك وضعه المالي، فإنّها سرعان ما تزوّجته، إذ كان ذلك الوسيم التافه على أتمّ الاستعداد لممارسة الإغواء الأرستقراطي ومُجيدًا له في آن. ولكن ما إن انتهى شهر العسل حتّى وجدت العروس نفسها مُضطرّة للاعتراف بأنّ والديها اللّذيْن أبديا اهتمامًا كبيرًا بالثروة والجاه كانا على حق في معارضة الزيجة المُستعجَلة، فبالإضافة إلى تراجع اهتمام زوجها بها على نحو ملحوظٍ اتضح أنّ عليه ديونًا كثيرة لم يقرّ بها، وأنّه حريص على عادات العزوبية أكثر من حرصه على الالتزام بواجباته الزوجيّة. وإذا كان من الصعب نعتُه بالقاسي لمرحه الجليّ كما هي عادة المستهترين دائمًا، فإنّ أقلّ ما يُقال عنه إنّه منحلٌّ إلى حدّ مفزع وعديم الضمير في العموم، فهذا الرجل الوسيم ما انفكّ يحتقر

---

(1) مدينة في غرب ألمانيا، تابعة لمحافظة دوسلدورف.

كافّة حسابات المال والمصلحة، مُعتبرا إيّاها أمورًا تافهة ودليلاً على ضيق الأفق والتعصّب الأعمى المبتذل، مُفضّلاً أن يحيا حياةً سهلة، على عكس زوجته الطامحة إلى حياة عائليّة منظّمة ومحترمة على النمط البورجوازي لراينلاند[1] وكان ذلك يضايقه بشدّة. وعندما اضطرّته الظروف إلى أن يحاول وضع يده على أي مبلغ مالي يخصّها وأنكرت عليه -وهي الحاذقة في الرياضيات- أعزّ أمانيه المتمثّلة في تأسيس ميدان لسباقات الجياد مع أنّها تملك ثروة طائلة، لم يعد يرى من داع للإبقاء على أيّ وجه من وجوه العلاقة الزوجية مع هذه الزوجة الألمانية الشمالية الضخمة ذات الرقبة الغليظة. وبقدر ما كان صدى صوتها المرتفع الصارم كريهًا في أذنيه، كان يتجاهله ممعنًا في الابتعاد عنها بوضوح يُضاهي خيبة أملها دون أن تبدر عنه أيُّ فظاظة. فإن وبّخته استمع إليها بأدب متظاهرًا بالتعاطف معها، وحالما تنتهي من مواعظها ينفض لومها الرصين كما ينفض دخان سيجارته، ولا يجد غضاضة في القيام بما يحلو له. ولقد كانت كياسته اللّطيفة والرسميّة في آن أَمَرَّ على المرأة المحبطة من كلّ أنواع المعارضة لها. وأمام عجزها التام عن القيام بأي شيء حيال أدبه وكياسته أوّلاً لأنّهما لا يُقاوَمان وثانيًا لأنّهما لا يُسيئان إليها، كان غضبها المكظوم ينفجر فجأةً بعنف في اتجاه مختلف، فتوبّخ الخدم وتثور عليهم وتصيح فيهم كي تُنفِّس عن حدّة سُخطها المبرّر، والحقّ أنّه كان اتجاهًا خاطئًا ترتّبت عنه

(1) هي الأرض الواقعة على طول نهر الراين وتتبع اليوم دولة ألمانيا، وتمتد غربًا حتى حدود بلجيكا وفرنسا ولوكسمبرج وهولندا ومن مدنها الشهيرة بون وكولونيا ودوسلدورف وليفركوزن...

عواقب وخيمة، ففي غضون عامين اضطرّت لأن تُوظِّف بِستَّ عشْرَة خادمةً تباعًا، وذات مرّة أُجبرت على دفع مبلغ معتبر من المال لواحدة منهنّ بعد أن عنّفتها، تعويضًا لها من أجل إسكاتها.

والخادمة الوحيدة التي صمدت كجواد صبور يجرّ مركبة في المطر هي كريسينز ، ففي قلب ذاك الاضطراب العاصف. لم تنحز إلى الزوج ولا إلى زوجته، وتجاهلت كافة التغيّرات كأنّها لم تكن، حتّى بدت كأنّها لم تلحظ وصول الخادمات اللاتي شاركتهنّ غرفة نوم الخدم بكلّ ما في ألوان شعورهنّ وأسمائهنّ ورائحة أجسادهن وسلوكهن من اختلاف. لم تتحدث مع أيٍّ منهن، ولم تبال بالغلق العنيف للأبواب ولا بما تشهده مواعيد الطعام من مقاطعات ولا حتّى بثورات العنف الهستيرية البائسة، بل كانت تذهب من المطبخ إلى السوق بهمّةٍ ونشاط غير مبالية بكل ذلك، ثمّ تعود مرة أخرى إلى المطبخ دون اكتراث بما يحدث خارج دائرتها المغلقة. لقد كانت صلبة وبلا عاطفة كمِدْرس الحنطة، فقضت الأيام يومًا تلو الآخر حتى مرَّ عامان على وجودها في المدينة الكبيرة دون حادثٍ واحد يُذكر، ولم ينمُ شيء في عالمها الداخلي باستثناء كومة الأوراق النقدية الزرقاء المرصوصة في صندوقها الصغير إذْ زاد ارتفاعها بوصة، وحين عدَّتها في نهاية العام بإصبعها الندي ورقةً ورقة، وجدت أن الرقم «ألف» لم يعد بعيدًا.

يبقى أنّ للصدفة فعلها الخطير، وللقدر الماكر أن يتدخّل متى شاء على نحو غير متوقّع، فيُصيب أصلب الناس ويُحطّمهم تمامًا.

وفي حالة كريسينز كان الظرف الخارجي عاديًا جدًّا مثلها، ولكن بعد مرور عشرة أعوام، عنّ للدولة أن تقوم بإحصاء جديد للسكّان، فأُرسلت استمارات شديدة التعقيد إلى كلّ المباني السكنيّة كي يملأها قاطنوها بالتفصيل. ولمّا كان البارون غير متأكّد من تسنّي قراءة الخط السيء الذي كُتبت به، وحرصًا منه على أن يُنجز المطلوب بلغة سليمة، قرَّر أن يملأ استمارات الخدم بنفسه، ما اضطرّه إلى استدعاء كريسينز إلى مكتبه. وما إن سألها عن اسمها وعمرها وتاريخ ميلادها حتّى اكتشف أنّ مسقط رأسها هو ذاك الركن نفسه من جبال الألب الذي كان يقصده، وهو الصيّاد الشغوف، ليصطاد الشمواة[1] في فضاءٍ مُخصّص للصيد على ذمّة صديق له. ثمّ لم يلبث أن فوجئ بأنّ المرشد ابن قريتها الذي رافقه بالفعل لأسبوعين هو عمّها، وتفاعلاً مع تلك المصادفة انساق البارون الشاب الذي كان في مزاج حسن إلى حديثٍ آخر أسْفَر عن مفاجأة جديدة، وهي أنّه أثناء زيارته للمنطقة تناول لحم غزال مشويّ ممتاز في النزل نفسه الذي كانت كريسينز تعمل فيه. ولئن لم يكن لذلك من أهمية، فإنّ وقع الصدفة أضفى على الأمر قيمة، وجعل كريسينز تعتبر التقاءها بشخصٍ في فيينا يعرف مكان نشأتها الأصلي معجزة حقيقيّة، فوقفت أمام البارون بوجهٍ متورّد يغشى الاهتمام ملامحه الخرقاء، شاعرة بالإطراء لمجرّد استحضار البارون لبعض النكات باللهجة التيرولية وسؤاله إيّاها عن مدى حذقها لليودل[2]، مع ما رافق ذلك من حديث عن تفاهاتٍ صبيانية.

---

(1) حيوان مجتر من الظباء.

(2) أداء صوتي بطريقة مدروسة اشتهر به القرويّون في الريف السويسري.

وبعد أن تسلّى قليلاً، ختم اللقاء بأن ربّتَ عليها تربيتةً قويّة براحة يده على طريقة الفلاحين في التودّد وصرَفَها ضاحكًا: «آآه... انصرفي إذن يا «كنزي» الطيبة، وخذي هذا الكراونان[1] طالما أنكِ من وادي زيللر».

طبعًا لم يكن لتلك الحادثة في حدّ ذاتها أيّ دلالة عاطفيّة، ولكنّ الحديث الذي استغرق خمس دقائق أثّر بعمق في طبيعة كريسينز الغريبة البليدة كما يؤثّر إلقاء حجر في قلب مستنقع ضحل: تظهر تموّجات بسيطة على السطح بالتدرّج، ولا تنفكّ تتحرّك ببطء حتّى تصل إلى أبعد مدى. لقد كانت المرّة الأولى منذ أعوام طويلة التي تُجري فيها كريسينز العنيدة الصَمُوت محادثةً شخصيّة مع إنسانٍ مّا، وقد بدا لها ما جرى تدبيرًا إلهيًّا مُعجزًا، فمن وجهة نظرها بدا لها من الغريب والخارق أن يكون أوّل من يتحدّث إليها في قلب المدينة الشبيهة بالمتاهة الحجرية عارفًا بموطنها الجبلي، وسبق له أن تناول لحم غزال مشويّ قامت هي بإعداده، بالإضافة إلى تلك التربيتة العفوية براحة اليد التي تعبّر في لغة الفلاّحين عن نوع من المغازلة السريعة للمرأة. ومع أن كريسينز لم تتحلّ بالجرأة الكافية لتعتبر ما أتاه السيد المبجّل الأنيق ضربًا من المغازلة المُضمَرة، فإن ما رافق التربيتة من أُلفة جسديّة أيقظ حواسّها النائمة إلى حدٍّ مّا.

وهكذا إذن أطلقتْ القوّة العارضة حركةً في العالم العميق للخادمة، انتقلت من طبقة إلى أخرى حتى تشكّل داخلها شعور

---

(1) عملة.

جديد. حدَثَ الأمر أوّلاً على نحوٍ غيرِ واضح، ثمّ أصبح جليًّا، تمامًا كما يحدث مع كلب يتعرّف فجأةً على سيّده من بين أشخاص كُثْرٍ يحيطون به، ويبدأ منذ تلك اللحظة وصاعدًا في اتّباع من قُدّر له أن يكون سيّده، وتحيّته إمّا بالتلويح بذيله أو بالنباح، والخضوع له بكامل الرضى، بل واقتفاء أثره خطوةً بخطوةٍ في خنوع تامّ. بالطريقة نفسها اخترق عنصرٌ جديدٌ دائرةَ حياة كريسينز الصغيرة التي كانت حتى ذلك اليوم متمحورةً حول الأشياء الخمسة المألوفة: المال-السوق-الموقد-الكنيسة-الفراش. ولـمّا كان العنصر الجديد في حاجةٍ إلى مساحة، فقد دفع بعنفٍ كلّ ما سواه بعيدًا من أمامه. وبحرص الريفي الذي لا يترك شيئًا يسقط من بين يديه، وضعته في أعماق العالم الغريزي المضطرب لحواسّها البليدة. وكما هي الحال دائمًا لم يظهر عليها أيُّ تغيير ملحوظ إلاّ بعد مرور بعض الوقت، ولم تكن للعلامات الأولى أهميّة تُذكر، إذ اقتصرت على ما أبدته من اهتمام بالغ بتنظيف ثياب البارون وأحذيته مقابل ترك تنظيف أغراض زوجته لخادمتها الخاصّة، وسرعة ذهابها إلى رواق الشقة لتتناول من يده قبّعته وعصاه بشوقٍ شديدٍ حال سماعها صوت دوران المفتاح في الباب. وتضاعف اهتمامُها بالطهي، وتكبّدها عناء الوصول الصعب إلى ساحة السوق الكبيرة من أجل تحصيل قطعةِ لحم غزالٍ تقوم بشيّها خصّيصًا له. وفوق كلّ ذلك تزايد اهتمامها بمظهرها الخارجي.

مضى أسبوع أو اثنان قبل أن تنبثق البوادر الأولى للعاطفة الجديدة من عالمها الداخلي، وبعد مرور أسابيع أخرى كثيرة أُضيف إليها إحساسٌ ثانٍ نما في البداية على نحوٍ متعثّر، ثم اكتسب ماهية

واضحة. وقد جاء هذا الإحساس المُستجدّ ليُكمّل الأوّل... مارًّا من طور المجرّد الغامض، إلى طور الواضح الصريح... أمّا فحواه فهي الكراهية المُشطّة لزوجة البارون، تلك المرأة التي بوسعها أن تشاركه العيش والنوم والحديث مع أنّها لا تُكِنّ له من التبجيل مثل ما تكنّه هي له. وسواء كان مردّ إحساس الخادمة إلى مشاهدتها عرَضًا معبودها في أحد المواقف المخزية التي تُذلّه فيها زوجته الغاضبة بأبغض الأساليب -وهو ما أصبحت تلاحظه غريزيًّا بوضوح أكبر- أو إلى تزايد رصيد العجرفة لدى المرأة المغتاظة المنحدرة من شمال ألمانيا إلى حدٍّ تضاعفت معه احتمالات ملاحظته، لا سيّما في ظل الحضور الجذل للبارون. سواء كان هذا أو ذاك، فإنّ الفتاة الريفيّة شعرت فجأةً بعداء لا يشوبه شكّ تجاه الزوجة الساهية؛ عداء مُعقّد تمّ التعبير عنه بآلافٍ من الملاحظات المتداخلة والأفعال الناضحة حقدًا. فعلى سبيل المثال، كانت البارونة تضطرّ باستمرارٍ إلى دقّ الجرس مرّتين على أقلّ تقدير قبل أن تجيبها كريسينز ببطء متعمّدٍ ونفور واضح وكتفاها المحدودبتان تعبّران عن استعداد مبدئيّ دائمٍ للمقاومة، فإن نفّذت الأوامر وأدّت المهام المنوطة بعهدتها فعلت ذلك دون أن تنبس بكلمة وبتعبير صريح عن الكآبة، ما يجعل البارونة غير واثقة من فهمها لها، حتّى إذا سألتها الشيء نفسه مجدّدًا لضمان الفهم، قابلتها بإيماءة كئيبة أو بإشارة ساخرة تقول من خلالها: «قطعًا يمكنني أن أسمعك». وحين تكون البارونة على أهبة الذهاب إلى المسرح يعنّ للخادمة الإعلان عن فقدِ مفتاحٍ مهمٍّ مُجبِرةً سيّدتها على التحرّك بعصبيّة هنا وهناك لفترةٍ تناهز نصفَ الساعة

هي مدّة البحث قبل أن تجد ضالّتها في إحدى الزوايا على نحو غير متوقّع. وزيادة على ذلك، كانت كريسينز تتناسى الرسائل والمكالمات الهاتفيّة الموجّهة للبارونة، وتردّ على اتهامها بالإهمال إذا حصل بأن تقول بفظاظة ودون أدنى أثر للندم «نسيت». وفي جميع الأحوال لم تكن تنظر إلى البارونة وجهًا لوجه البتّة خوفًا من عدم قدرتها على إخفاء كراهيتها لها.

في الأثناء كانت الخلافات العائلية بين الزوجين قد تطوّرت إلى مشاهد مؤسفة بنسقٍ مُطّرد، ولعلّ كريسينز بفظاظتها المستفزّة لعبت دورًا مّا، دون وعيٍ منها، في تأجيج طبع البارونة الغاضب الذي راح يزداد حدّة مع كل أسبوع جديد. ففي ظلّ هشاشتها العصبيّة المرتبطة ببقائها بتولاً مدّة طويلة، وشعورها بالمرارة من لا مبالاة زوجها، كانت الزوجة الساخطة تفقد السيطرة على نفسها بسهولة. وعبثًا حاولت أن تُخفّف من اهتياجها بالبروميد[1] والفيرونال[2]، وإلى جانب توتر أعصابها الملحوظ في كل المجادلات العنيفة التي تخوضها، كانت تُعاني من نوبات بكاء وهستيريا دون أن تحظى بأقل القليل من التعاطف أو حتّى بمجرد التظاهر بالمساندة والدعم من أيّ شخص كان. وفي نهاية المطاف أوصى الطبيب الذي استدعوه لمعاينتها بنقلها إلى إحدى المصحّات وإبقائها هناك لمدّة شهرين،

(1) مركّب كيميائي.

(2) الباربيتال حسب الاسم الذي يُعرف به في الولايات المتحدة وفي مناطق أخرى، هو المادّة المسوّقة تحت الاسم التجاري فيرونال في شكلها الحمضي النقي، وميدينال في شكلها الملحي الصوديومي، والمستخدمة كمنوّم منذ 1903.

وقد وافق زوجها اللامبالي على ذلك مُبديًا اهتمامًا مفاجئًا بصحّتها جعل الزوجة المرتابة تُظهر شيئًا من التوجّس بشأن المُقترح في بادئ الأمر، قبل أن يُتّخذ القرار النهائي بضرورة قيامها بتلك الرحلة واصطحاب خادمتها الخاصّة معها في مقابل بقاء كريسينز في الشقّة الفسيحة لخدمة سيّدها.

ولقد كان لوقع الخبر على مشاعر كريسينز البليدة مفعول منشّط مفاجئ. وكأنّ كافّة قواها ورغبتها في الحياة قد خُضّت بعنفٍ في قارورة سحريّة، فتصاعدت رواسب عواطف خفيّة من أعماق وجودها وصبغت سلوكها بالكامل. إذ فارق الثقل أطرافها المتجمّدة الصلبة فجأةً، وبدت ومفاصلها وكأنّها قد لانت حال تناهي الأخبار المثيرة إلى أذنيها، فأصبحت تخطو بسرعةٍ ورشاقةٍ وتركض هنا وهناك بين الغرف، وترتقي السلالم وتهبط عنها بخفّة، بل إنّها لّما حان وقت إعداد أغراض الرحلة، حزمت كافة الحقائب، وحملتها إلى السيارة بنفسها دون أن يطلب أحدٌ منها ذلك. وعندما عاد البارون من محطة القطار مساءً في ساعة متأخّرة، هرعت إليه متلهّفةً فناولها عصاه ومعطفه، فتنهّدت في راحةٍ قائلة: «هي الآن في الطريق»، ولكنّ ما حدث بالتوازي مع ذلك غريبٌ فعلاً. فقد ندّت عن شفتيها الضيّقتين حركةٌ واضحة جعلت فمها أشبه بخطّ أفقيّ كبير راسمةً على سحنتها المشرقة الحمقاء ابتسامةً عريضة مُباغتة، مع أنّها في الوضع الطبيعي لم تكن تضحك البتّة مثلها مثل جميع الحيوانات. تشكّلت الابتسامة رغمًا عن صاحبتها، مثلما يحدث مع الحيوان حين يعجز عن كبح إحساسٍ مّا، حتى إنّ البارون شعر

بالإحراج والمفاجأة، وبنوعٍ من الخزي لما أبداه من تآلف في غير محلّه مع خادمته، فتوارى في مكتبه دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة.

ولكنّ الشعور العابر بعدم الراحة سرعان ما مرّ، ليحلّ محلّه بعد أيّام قليلة إحساس مشترك بالراحة جمع بين السيد وخادمته، فأخذا يستمتعان بالصمت والاستقلال الثمينيْن، وهو ما انعكس إيجابيًّا على مزاجيهما. وكأنّ رحيل البارونة قد أزاح سحابةً مكفهرّةً عن الأجواء المحيطة بهما، إن جاز التعبير، وأعفى الزوج الشاعر بحريّته من حاجته الدائمة لإيجاد الأعذار لها، فعاد متأخّرًا في الأمسية الأولى عقب رحيلها. وشكّلت إحاطة كريسينز الصامتة به نقيضًا مناسبًا لاستقبال زوجته الحافل له في مثل تلك الأوقات. بعد ذلك انغمست الخادمة في العمل اليوميّ مُجدّدًا ولكن بحماسة فائقة، فكانت تنهض مبكّرًا، وتُلمّع بحرصِ امرأةٍ ممسوسة مقابضَ الباب وما شابهها حتى تستعيد بريقها، ثمّ تعدّ من أصناف الطعام ما لذّ وطاب، ولقد لاحظ البارون بدهشة أثناء تناوله أوّل وجبة غداء تُعدُّها له أنها أخرجت لأجله الأطباق الصينيّة والسكاكين الباهضة التي كانوا يحتفظون بها في الصِّوان الفضي ولا يخرجونها إلا في المناسبات الخاصة. طبعًا لم يكن البارون في العموم قويّ الملاحظة، لكنّ العناية اللطيفة الحانية التي أولته إياها المخلوقة الغريبة ما كانت لتخفى عليه، وبخلوّ باله المعهود أعرب عن رضاه دون تكلّف فمدح طهيها وأثنى عليها ببضع كلمات وديّة، وفي اليوم التالي -وكان يوم عيد شفيعه- تفاجأ بأنّها قد أعدّت له كعكة متقنة نُقشت عليها الحروف الأولى من اسمه وشعار النّبالة بطبقة برّاقة من السُكّر، فابتسم وقال لها وهو في حالة

مزاجية رائقة: «أنتِ تدلّلينني حقًّا... يا كنزي! ماذا سأفعل عندما تعود زوجتي مرّةً أخرى لا قدّر الله؟!»

ومع ذلك، سيطر على نفسه لأيام قليلة قبل أن يتخلّص تمامًا من آخر وساوسه. وكان حينها، قد تيقّن بإشارات متنوّعة من أنها ستصمت عمّا يجري فبدأ يعود إلى حياة العزوبية مجدّدًا، فاعلاً ما يحلو له في شقّته الخاصة. وفي اليوم الرابع، تصرّف كما يفعل رجل تركته زوجته، فاستدعى كريسينز وطلب منها أن تعدّ عشاءً خاصًّا بشخصين لذاك المساء، وأن تذهب بعدها إلى فراشها. قال ذلك دون أيّ توضيح، مُكتفيًا بالإشارة إلى أنه سيتولّى كلّ شيء بنفسه. وكالعادة تلقّت كريسينز الأمر في صمت، ولم تنظر إليه ولو نظرةً خاطفة يمكن له أن يستشفّ منها ما إذا كان عقلها البليد قد أدرك فحوى كلماته أم لا. ولكنّه سرعان ما اكتشف بدهشة مُغتبطة أنها قد فهمت نواياه الحقيقية بدقّة، فعندما عاد من المسرح إلى المنزل في وقت متأخّر من المساء وبرفقته طالبة صغيرة تدرس موسيقى الأوبرا، وجد أنّها لم تقتصر على إعداد المائدة جيدًا وتزيينها بالزهور، بل إنّها أيضًا عمدت بصفاقة إلى طيّ الفراش المجاور لفراشه، ووضع عباءة زوجته الحريرية وخُفّيها على مرمى البصر. فما كان من الزوج المستهتر إلاّ أن ابتسم على نحو غريزي للاهتمام المطعّم ببعد النظر الذي أولته إيّاه تلك المخلوقة الغريبة كريسينز. وبذلك ما عاد ثمّة ما يمنعه من أن يمنح «ملاكه الحارس» كامل ثقته.

وفي الصباح التالي استدعاها كي تساعد عشيقته الجريئة في ارتداء ثيابها، خاتمًا بذلك على الاتفاق غير المعلن بينهما.

في تلك الأيام أيضًا اكتسبت كريسينز اسمها الجديد، فأثناء تدرّب طالبة الموسيقى الصغيرة المرحة على دور دونا ألفيرا[1]، وبينما كانت تنعش ذاكرة حبيبها ليُحسّن آداء دور دون جيوفاني قالت له فجأةً ضاحكة: «والآن.. ناد على ليبوريلا[2] الخاصّة بك» فأعجبه الاسم، إذ كان غريبًا ومثيرًا للسخرية حين يُطلق على المرأة النحيلة التيرولية، ومنذ تلك اللحظة لم ينادها قطّ باسم آخر سوى ليبوريلا. أمّا كريسينز التي اندهشت في البداية، فقد أصبحت مسرورة بعد ذلك من وقع هذا الاسم الموسيقى المبهج الذي لم تفهمه تمامًا، لكنها اعتبرته علامة يميّزها بها سيّدها المنشرح، وكلّما ناداها بهذا الاسم انشقّت شفتاها النحيفتان كاشفةً عن أسنانها البُنّيّة الشبيهة بأسنان الجواد، وهرعت بخضوع نحو سيّدها ككلبٍ يهز ذيله، لتتلقى أوامره.

كان الاسم مجرّد مزحة، لكنّ مغنّيَةَ الأوبرا الصغيرة، ودون قصدٍ منها، أصابت الهدف بدقّةٍ حين أطلقته على كريسينز لملاءمته لها تمامًا، ذلك أنّ الخادمة الناتئة العظام والكبيرة السنّ نسخةٌ من خادم دون جيوفاني وشريكه في الجريمة كما صوّره دي بونتي بجلال قدره، فضلاً عن أنّ المرأة التي لم تعرف الحب يومًا، كانت تشعر بزهو وسرور غريبين من مغامرات سيّدها. هل كان السبب أنها تشعر بالرضا

---

(1) شخصيّة من شخصيّات أوبرا «دون جيوفاني» أو «دون جوان» للموسيقار النمساوي موتسارت (1756-1791). اقتبس فيها سيرة «دون جوان» وهو زير نساء ذاع صيته في أوروبا في القرن السابع عشر تقول عنه الحكايات الشعبية إنّه أغوى أكثر من ألف امرأة دون تعقيدات أو منغصات.

(2) كناية عن شخصيّة الخادم «ليبوريلو» في أوبرا «دون جيوفاني».

حينما ترى فراش زوجته التي تمقتُ مبعثرًا ومدنّسًا بجسدٍ جديدٍ كلَّ صباح، أم أنّ روح المؤامرة خلّفت فيها شعورًا خفيًّا بالبهجة دغدغ مشاعرها؟ لا أحد يعلم، لكنّ المُحصّلة أنّ العانس العبوس المحدودة العقل أبدت استعدادًا عاطفيًّا إيجابيًّا لأن تكون في خدمة سيّدها في كافة مغامراته. ولئن مرَّ وقتٌ طويلٌ على آخر مرّة شعر فيها جسدُها الكادحُ والبارد جنسيًّا جرّاء عقود من العمل بمثل تلك النوازع، فإنّها لم تُخطئ إحساسها بالارتياح والبهجة الشبيه بشعور قوّادة راضية، وهي ترى شابة ثانية في غرفة النوم بعد مرور أيام قليلة، ثمّ ثالثة، وكان دورها في المؤامرة والعطر المثير لذلك المناخ الجنسي بمثابة المنبّه لحواسّها البليدة. لقد أضحت كريسينز ليبوريلا فعلاً: رشيقة ويقظة، وعلى استعداد دائم لإيلائك كامل انتباهها، بل لقد طرأت صفاتٌ غريبة على طباعها، وكأنّ حرارة شغفها أوجدتها عنوة. صفات من قبيل الخداع البسيط، وإتيان بعض التصرفات المؤذية والتعليقات الحادة، والفضول إلى حدّ التنصّت ورصد الأشخاص خلسة، والمرح شبه الدائم! استرقت السمع من خلف الأبواب ونظرَت عبر الثقوب المجعولة لإيلاج المفاتيح، وفتّشت الغرف والأسرّة، وواظبت على صعود السلّم والهبوط منه سريعًا مغمورة بالإثارة حال شمّها رائحة الضحيّة كما لو كانت حيوانًا مفترسًا. وشيئًا فشيئًا أعاد هذا المزيج من الفضول والتحفّز والتعاطف تشكيل هذه الصَدَفة الخشبيّة وأخرجها من كسلها القديم البليد بإضفاء بعض ملامح الوجود الإنساني الحيّ عليها. ولَكَمْ كان اندهاش الجيران عظيمًا حين لاحظوا أنّ كريسينز أصبحت اجتماعيّة فجأةً، وبدأت بتجاذب أطرافِ الحديث مع

الخادمات في البناية، وأطلقت بعض النكات مع ساعي البريد، وما انفكّت تستغرق في الحديث والثرثرة مع النساء في أكشاك السوق.
وذات مساء، بعدما انطفأت الأنوار في الساحة، سمعت الخادمات النائمات صوتَ همهمةٍ غريبة قادمة من نافذة غرفة كريسينز التي عهدوها هامدة... لقد كانت كريسينز بصدد الغناء مؤدّية على نحو أخرق بصوتها الأجشّ الخافت واحدة من الأغنيات الألبيّة[1] التي تغنّيها راعيات الغنم في المراعي مساءً. تهادت النغمة الرتيبة بصعوبة من شفتيها غير المدرّبتين، فجاء اللحن متصدّعًا، لكنّ صوتها خرج غريبًا أخّاذًا بكلّ ما في الكلمة من معنى. كانت أولى محاولاتها للغناء مجدّدًا منذ طفولتها، فغلّف شيء مّا مُؤثّر تلك النغمات المتلعثمة التي خرجت منها إلى الضوء بصعوبة، صاعدة من قلب الظلام، أو لنقل من عتمة أعوام دفينة.

أمّا البارون، ومع أنّه السبب الحقيقي في التغيير الذي حلّ بالمرأة، فإنّه لم يعِ بذلك ولم يلحظ منه إلاّ القليل.. أقلّ من أيّ شخص، إذ مَن تُراه يلتفت لينظر إلى ظلّه؟ هو يعلم أنّه يتبعه في صمتٍ وإخلاص، ويقتفي أثر خطواته... وقد يُسرع أحيانًا فيبدو لظلّه كأُمنية دون أن يعي الأمر، لذلك نادرًا ما يحاول ملاحظته وهو يحاكيه، أو يتعرف إليه في صورته المشوّهة. لم يلحظ البارون شيئًا بخصوص كريسينز سوى أنها كانت في خدمته باستمرار، وأنّها مثاليّة في صمتها، وجديرة بالاعتماد عليها، ومخلصة له إلى حدّ نكران الذات. وقد انتبه إلى أنّ صمتها، وتلك المسافة التي تحافظ عليها دومًا في كافة المواقف التي

(1) نسبة إلى جبال الألب.

تتطلّب كتمانًا، نافعٌ له تمامًا. أحيانًا، كان يمنّ عليها بكلمات تقدير قليلة وبسيطة، تمامًا مثلما يُربّت المرء يومًا على كلب، ومن وقت إلى آخر يمازحها، ويقرص أذنها بطيبة، أو يمنحها بعض النقود أو حتى تذكرة مسرح... أشياء بسيطة يمكنه أن يتناولها من جيب معطفه دون أن يفكّر لحظةً، لكنّ تلك الأشياء نفسها كانت بالنسبة إليها مقدّسات... بل كنوزًا تخفيها في صندوقها الخشبي الصغير.

وبمرور الوقت أصبح يفكّر بصوت عال في حضورها، ويأتمنها على نقل رسائل شفهية معقدة، وكلما ازدادت دلالات ثقته فيها، بذلت نفسها من أجله بمثابرة وعرفان. ثمّ شيئًا فشيئًا تملّكتها حاسّة تجسّس غريزيّة غريبة مع محاولات للتعرف على أمنياته، بل وتوقّعها. فبدت حياتها بأكملها؛ بكل ما فعلته وكل ما تمنته، وكأنها تنسلّ من جسدها لتحلّ في جسده... صارت ترى كلّ شيء بعينيه، وتصغي باجتهاد حتى يتسنّى لها أن تخمّن شعوره، بل وأن تشاركه بكلّ حماسٍ منحرفٍ مُتعتَهُ في ملذّاته ونزواته كافة. ابتسمت بابتهاج لعبور شابة جديدة عتبة البيت، وتجهّمت كامرأة خاب أملها، لعودته إلى المنزل ذات مساء دون عشيقة... وعقلها الذي كان بليدًا في ما مضى بات يعمل بسرعة ودون هوادة، مثلما تعمل يداها، وقد تلألأ بريقٌ يَقِظٌ جديد في عينيها. نعم، ثمّة إنسان استيقظ فجأةً داخل الجواد المنهك الكادح... إنسان عاش متحفّظًا كئيبًا، لكنّه بارعٌ وخطير.. إنسان بإمكانه أن يقرّر ويتصرّف طبقًا لتفكيره.. ويعمل دون راحة.. وفوق كلّ ذلك يحسن التآمر.

وذات مرّة عاد البارون مُبكّرًا وإذا به يتوقّف فجأةً في الرواق متسائلاً بدهشة: هل القهقهة التي يسمع صادرة فعلاً من مطبخه الدائم السكون؟ ثم ظهرت ليبوريلا عند مدخل الباب وهي تُجفِّف يديها في مريلتها. بدت جسورة وخرقاء في الوقت ذاته وهي تقول وقد خفضت عينيها: «اعذرنا يا سيدي.. ابنة الحلواني هنا.. إنها فتاة جميلة، وهي تودّ أن تلتقي بك». نظر إليها البارون مندهشًا، دون أن يحسم خياره بين الغضب من جُرأتها التي تخطّت حدّها، أو الاستمتاع بما جلبته له. وفي نهاية الأمر تغلّب عليه فضوله الذكوري وقال: «حسنًا.. دعيها تلقي عليَّ نظرة».

وسرعان ما ظهرت الفتاة العذبة الشقراء ذات الستة عشر عامًا التي أغرتها ليبوريلا تدريجيًا بمعسول الكلام... وحين دفعتها مُغويتها من عند مدخل الباب احمرّ وجهها وضحكت في حرج ثم أدارت نفسها بعفوية أمام السيد الأنيق الذي دأبت النظر إليه بإعجابٍ طفوليّ من دكان الحلواني المقابل. خلب جمالها لبّ البارون، فدعاها لاحتساء كوب من الشاي في مكتبه. التفتت الفتاة بحثًا عن كريسينز في تردّد وكأنها تسألها ما إذا كان عليها أن تقبل دعوته أم لا، لكن الخادمة كانت قد اختفت داخل المطبخ بسرعةٍ واضحة، فلم يبق للفتاة من خيار وقد سقطت في فخ المغامرة، سوى أن تقبل تلك الدعوة الخطِرة، وهي مستثارة ومتورّدة الوجه من الفضول.

يبقى أنّ الطبيعة ليس بإمكانها أن تقفز أبعد ممّا هو متاح، فبرغم ما أثاره ضغط العاطفة المنحرفة المضطربة من خفّة في الطبيعة البليدة

والخشنة لكريسينز ، لم تكفها القوى العقلية المحدودة التي اكتسبتها مؤخّرًا للتغلب على العقبة التالية، والسبب أنّها مرتبطة بغرائز حيوان قصيرة الأمد. ففي خضمّ انسياق الخادمة الكلّي لهاجس خدمة سيدها الذي أحبّته حبّ الكلاب لمالكها، بكل طريقة ممكنة نسيت تمامًا أمر زوجته الغائبة. فكانت لحظة اليقظة مرعبة، حتّى إنّ الأمر بدا أشبه بهزيم رعد في سماء صافية. فذات صباح توجّه البارون إلى كريسينز وهو يمسك بخطابٍ في يده، وعليه أمارات الضيق، وطلب منها بخشونة أن تعيد كل شيء في الشقة إلى نصابه، لأن زوجته ستعود من المصحة إلى المنزل في اليوم الموالي. فإذا بها تتصلّب وقد شحب وجهها وفغر فمها من هول الصدمة. طعنها الخبر كالسكين، فلبثت تحدّق وتحدّق، كما لو أنها لم تفهم الأمر. لقد شوَّهت صعقة الرعد وجهها على نحو يتعذّر وصفه، حتى إنّ البارون قدّر أنّ عليه تهدئتها قليلاً بتعليق فيه تبسّط فقال: «يبدو لي أنكِ غير سعيدة أيضًا يا كنزي، ولكن ما من شيء أمامنا لنفعله حيال الأمر».

ومع ذلك سرعان ما ظهر شيء على وجهها الصارم مجدّدًا، وقد خرج من أعماقها السحيقة، وكأنّه آتٍ من أحشائها.. اضطراب هائل صبغ خدّيها الأبيضين بلونه الأحمر القاني تدريجيًّا. وببطء شديد، بزغت الكلمات، مدفوعة بقوّةِ ضرباتٍ شديدة ليست سوى دقات قلبها. راح حلقها يرتعش من فرط المجهود الذي كانت بصدد بذله، وأخيرًا تمكّنت من التحدّث وخرجت الكلمات باهتة غير مفهومة ومرفقة بصرير أسنانها: «ولكنـ.. هـ..هل... من المـ..الممكن أننن....»

نُطقت الكلمات بغلاظةٍ تُشبه صوت إطلاق قذيفة مميتة. ولَكَمْ بدا وجهُها المشوّه شرّيرًا ومُعاندًا وكئيبًا بعد أن جعلته منفذًا تُفرغ منه مشاعرها بمثل ذاك العنف! حتى إنّ البارون بدأ في التراجع على نحوٍ غريزيّ وقد اعترته الدهشة. ولكن كريسينز كانت قد انصرفت بالفعل، وأخذت تنظّف وعاءً نحاسيًّا بعصبيّة مفرطة كما لو أنها تتقصّد كسر أصابعها.

ومع عودة زوجة البارون اجتاحت العواصف الشقّة مجدّدًا، صفقت الأبواب وهبّت بغضب في أنحاء الغرف، مكتسحةً كلّ شعور بالراحة والدفء كتيّار هواء بارد. قد تكون الزوجة المخدوعة اكتشفت من جيرانها الوُشاة أو من خطاباتٍ مجهولة الطريقةَ الخسيسة التي أساء بها زوجها استخدام حريته كسيد للمنزل، وقد يكون طبعه العصبي السيء على نحو جليّ قد أزعجها، لا سيّما وأنه لم يتردّد في أن يظهره عند عودتها. ولكن في جميع الأحوال لا أحد يستطيع الزعم بأنّ قضاء شهرين في المصحة قد أجدى نفعًا لأعصابها المتوتّرة. كلّ ما هناك أنّ نوبات البكاء استُبدلت بتهديدات عرضيّة ومشاهد هيستيرية، وبقايا العلاقة بين الزوجين راحت تنهار أكثر فأكثر. ولئن تمكّن البارون لأسابيع قليلة من التصدّي ببسالة لعواصف تقريع زوجته بكياسته المعهودة التي ظلّ مُحافظًا عليها، مُراوغًا إيّاها بإجابات غير مباشرة كلّما هدّدته بالطلاق أو بإرسال خطابات إلى والديها فإنّ لامبالاته الباردة والمستفزّة ذاتها هي ما جرف المرأة غير الودود بعيدًا، لتسقط مجدّدًا في نوبات اهتياجٍ عصبي، مشوبةٍ بعداء خَفيّ.

حصّنت كريسينز نفسها كليًّا داخل صمتها القديم، ولكنّه أضحى صمتًا عدوانيًا وخطِرًا. مع وصول سيّدتها ظلّت في المطبخ بتحدٍّ، وعندما استدعتها بعد مُدّة لم تتمنّ لها أن تكون في أحسن أحوالها. ثبّتت كتفيها بعناد، وتسمّرت في مكانها ككتلة من الخشب، وراحت تجيب على الأسئلة كافّة بتجهّم ما حدا بسيّدتها التي فقدت الصبر إلى المسارعة بتركها. ولم تكن كريسينز تحتاج إلى أكثر من نظرةٍ واحدة لتصبَّ كلّ كراهيتها المكبوتة على المرأة التي أولتها ظهرها غير مرتابة في شيء. فقد شعرت عواطفها الشرهة بأنها سُرِقت خطأً مع عودة البارونة. وبعد ما عاشته من انغماس في ملذّات الخدمة التي كانت تقدّمها للبارون بكل حماسة، عادت مجدّدًا إلى المطبخ والموقد، وحُرمت من اسمها الحميم: «ليبوريلا». وقد حرص البارون على عدم إظهار أيّ علامة من علامات الإعجاب بكريسينز أمام زوجته. غير أنّه في بعض الأحيان وعلى إثر شعور بالإنهاك ينتابه من المواجهات غير المحتملة، أو حاجة مُلحّة إلى الراحة وإلى التنفيس عن عواطفه المكبوتة، كان ينسلّ خفية إلى المطبخ ويجلس على أحد المقاعد الخشبية الخشنة لا لشيء إلاّ ليتأوّه قائلاً: «لم أعد أتحمّل هذا».

ولقد كانت تلك اللحظات التي يبحث فيها معبود ليبوريلا عن ملجأ لديها من فرط توتّره أسعد لحظات حياتها. لم تجازف قطّ بإجابته أو مواساته بكلمة، بل اكتفت بالجلوس هناك صامتة غارقة في التفكير، ورفع بصرها إليه أحيانًا كما لو أنّها ترمق إلهها بنظرةٍ مشفقةٍ مُعذَّبة وخَنُوع، نظرة تكاد تُلمس، مُسديةً له معروفًا بتلك الشفقة الصامتة. حتّى إذا ما غادر المطبخ عاد الغضب ليعقد حاجبيها،

وكانت يداها الثقيلتان تعبّران عن هذا الغضب بأن تنهالا على قطع اللحم المسكينة، أو تنغمسا في تنظيف الأطباق والسكاكين بوحشيّة.

في النهاية أطلق الجوّ المتوتّر في الشقّة العنان لنفسه وعصف بالمكان، فأثناء إحدى المواجهات العاصفة بين الزوجين فقدَ البارون صبره وتخلّى فجأةً عن لامبالاته المهادنة الشبيهة بأسلوبِ تلميذٍ في المدرسة -وهي الحال التي تبنّاها طوال تلك المدة- فصفق الباب بعنفٍ من خلفه صائحًا: «لقد اكتفيت من هذا». صرخ بغضبٍ شديد حتى إنّ نوافذ الشقة جميعها اهتزت من صرخته. ثم ذهب إلى المطبخ وهو يتّقد غضبًا وقد احمرّ وجهه إلى أقصى حدّ، وكانت كريسينز هناك ترتعش منحنيةً كقوس، فقال لها: «أعدّي حقائبي فورًا وابحثي عن بندقية الصيد، سأذهب في رحلة صيد تمتدّ لأسبوع. فحتّى الشيطان نفسه لا يمكنه احتمال هذا الجحيم بعد الآن. لابدّ وأن أضع حدًّا لهذا».

نظرت إليه بسعادة، فهو بذلك يعود ليصبح سيّد البيت من جديد. ولم تتمالك نفسها فانطلقت ضحكة مجلجلة من حلقها وهي تقول: «أنت على حقّ يا سيدي... لابد وأن تضع حدًّا لهذا». ثمّ هرعت من غرفة إلى أخرى مرتعشة من فرط الحماسة، والتقطت سريعًا من الدواليب والمناضد كلّ ما يمكن أن يحتاجه، وليس في جسدها القويّ من عصب إلاّ واستنفره التوتر والرغبة. حملت الحقيبة والبندقية إلى السيّارة في الخارج بنفسها. وأثناء بحث البارون عن كلمات يشكرها بها على مساعدتها المتلهّفة ابتعدت عيناه عنها

بانزعاج، والسبب أنّ تلك الابتسامة الحقود التي تُشعره بالقلق الشديد، عادت لترتسم على شفتيها الضيقتين. وإذ رآها على وشك السقوط في مثل ذاك الفخّ، انتبه على نحوٍ غريزي إلى ما يُشبه حركة خافتة لحيوان يستجمع شتات نفسه كي يقفز قفزته. ولكنّها لم تلبث أن عادت لنفسها مجدّدًا وهمست له بصوت أجشّ وألفة مهينة قائلة: «رحلة سعيدة يا سيدي. سأتولّى أمر كل شيء[1]».

بعد مرور ثلاثة أيام أُستُدعي البارون من رحلة صيده ببرقيّة عاجلة. كان ابن عمّه ينتظره في محطة السكك الحديدية. ومع أول نظرة إليه أدرك البارون الذي اجتاحه القلق أن شيئًا مريعًا قد حدث، فقد بدا ابن عمّه منفعلاً جدًّا وهو يتململ في اضطرابٍ شديد. وإثر إلقائه بضع كلمات كان قد أعدّها خصّيصًا ليُهيّئ البارون للخبر، أعلمه بما حدث: لقد وجدوا زوجته ميّتة في فراشها في الصباح وغرفتها معبّأة تمامًا بالغاز. «إنّ الخطأ ناتج عن إهمال شديد.. لسوء الحظّ». ذاك ما قاله ابن عمّه، فموقد الغاز لم يكن يوقد كثيرًا في شهر مايو، ولكن مزاج زوجته الانتحاري بدا واضحًا بالفعل فقد تناولت المرأة التعيسة بعض حبوب الفيرونال في الليلة الماضية. وبالإضافة إلى ذلك أكّدت كريسينز الطاهية التي كانت بمفردها في المنزل مساءً، أنها سمعت سيّدتها البائسة تخرج من غرفة نومها في تلك الليلة، ربما بهدف تشغيل أنبوب الغاز الذي كان مغلقًا بعناية. وبسماع أقوال

(1) غالية جمل كريسينتيا مكتوبة عن عمد بشكل لغوي خاطئ في الأصل لتعبرّ عن عدم إتقانها اللغوي ولكنّي فضلتُ أن أشير إلى هذا في الحاشية فقط دون أن أثقل على القارئ بكتابة غامضة.

كريسينز اتفق الطبيب الشرعيّ ورجال الشرطة الذين استدعوه على أن الواقعة حادث بلا شك وسُجّلت الوفاة كحادث انتحار.

طفق البارون يرتعش، وحين ذكر ابن عمّه ما قالته كريسينز، شعر فجأةً بالدّم يتجمّد في عروقه، وقفزت إلى رأسه فكرةٌ مخيفة مريعة أشعرته بالغثيان، لكنّه قمع غضبه الشديد وإحساسه بالأسى، وسمح لابن عمّه بأن يصطحبه بهدوء إلى منزله. وجد الجثمان قد أزيل بالفعل وأفراد الأسرة في انتظاره في قاعة الاستقبال بوجوه كئيبة عدائية. بدت تعازيهم باردة كالسكّين، وهم يقولون بنبرةِ اتّهام إنّ عليهم أن يذكروا أنه من المستحيل كتمان ما حدث، والحال أنّ الخادمة هرعت إلى الخارج في ذلك الصباح وصرخت على السلّم: «لقد قتلت سيدتي نفسها». ولذلك فقد اختاروا أن يقوموا بمراسم جنازة هادئة. ثمّ لم يلبثوا أن وجّهوا إليه السكّينَ الحادّة الباردة مجدّدًا حين أضافو أنّ كافة أنواع الإشاعات قد أثارت بالفعل فضول المجتمع من حولهم حتى وصلت إلى درجة بغيضة. أمّا البارون المُكتئب فكلّ ما فعله هو الاستماع إليهم في اضطراب، ثمّ رفَعَ عينيه على نحو غريزي إلى باب غرفة النوم المغلق، لكنه سرعان ما أبعدهما عنه بجبن. أراد أن يفكر في شيء آخر غير تلك الفكرة البغيضة التي ظلّت تنفخ في عقله، ولكن كل ذاك الحديث الخبيث الفارغ أربكه بشدة. وبعد أن لبث الأقارب بثيابهم السوداء في المكان يتحدثون لنصف ساعة أخرى، انصرفوا واحدًا تلو الآخر ليبقى وحيدًا وسط تلك الغرفة الفارغة ذات الإضاءة الباهتة، وهو يرتعش كما لو أنّه يعاني من إصابة قويّة، وقد أخذ الألم يكتسح رأسه والتعب يغزو مفاصله.

ثم سمع طرقًا على الباب فقال في شرود: «ادخل». ليتناهى إليه بعد ذلك وقع خطواتٍ متردّدة تجرّ نفسها جرًّا... خطوات خفيّة يعرفها جيّدًا. تملّكه الرعب فجأةً، وشعر بها يُشبه ليَّ أحدهم فقرات عنقه بقوّة، بينما اجتاحت الرعدة جسده من صدغيه حتى ركبتيه. أراد أن يلتفت ولكن عضلاته خانته، فوقف في منتصف الغرفة مرتعشًا دون أن يصدر أيّ صوت، ويداه مُدلاّتان على جانبيه، وهو جامد كحجر. وقتها أدرك بوضوحٍ شديدٍ كم يبدو شعوره بالذنب مقيتًا. ولكن كلّ ما بذله من جهد وهو يُحاول الحركة لم يُجد نفعًا، إذ لم تعد عضلاته تطيعه. بلغه الصوت من خلفه قائلاً: «أردت فقط أن أسألك يا سيّدي: هل ستتناول الطعام في المنزل أم في الخارج؟». انتابت البارون رجفة أعنف من سابقاتها ووصلت تلك البرودة القاسية إلى صدره حتّى إنّه حاول النطق ثلاث مرات قبل أن يتمكّن في النهاية من أن يُخرج الكلمات: «لا .. لا أريد أيّ طعام». ثم ابتعدت الخطوات عنه مُجدّدًا دون أن يجد الشجاعة ليلتفت. وبعد ذلك فارقه تصلّبه واستولت عليه تشنّجات عنيفة وشعور بالدوار. وفجأةً، اندفع صوب الباب وأدار فيه المفتاح كي لا تصل إليه تلك الخطوات المخيفة التي تتبعه كشبح مرّة أخرى. ارتمى على أحد المقاعد محاولاً إبعاد الفكرة الرهيبة عنه، هو لا يريد التفكير فيها، لكنها لا تنفكّ تزحف في عقله باردة لزجة كالحلزون. إنها تستحوذ عليه كليًّا رغم نفوره حتّى من مجرّد الاقتراب منها، فكرة مريعة قذرة لا يمكن الهروب منها، شغلت ذهنه طوال تلك الليلة التي لم يذق فيها طعم النوم، بل وظلت مستحوذة عليه حتى في الساعات التالية

أثناء الجنازة حين كان واقفًا أمام النعش في زيّه الأسود.

في اليوم التالي للجنازة، غادر البارون المدينة على عجل. لم يعد يحتمل رؤية تلك الوجوه ثانيةً، ففي قلب شفقتهم فضولٌ متحفّز ونظرة مؤلمة تستجوبه، أم تراه قد تخيل كل ذلك؟ حتى الجماد من حوله بدا كأنه يتّهمه بعداء... فإذا فتح الأبواب بعفويّة أشعرته كلّ قطعةِ أثاثٍ في الشقّة -لا سيّما في غرفة النوم التي التصقت رائحة الغاز فيها بكلّ شيء- بأنّه غير مُرحّب به. أمّا الكابوس الحقيقي الذي لم يستطع تحمّله لا في ساعات نومه ولا في يقظته فهو برود شريكته السابقة في الجريمة ولامبالاتها. لقد كانت تتهادى في الشقّة الفارغة وكأنّ شيئًا لم يحدث. ومنذ اللّحظة التي ذكر له فيها ابن عمّه اسمها في محطة القطار، صار يرتعش لمجرّد تخيّله أيّ لقاء بها، ويسيطر عليه قلقٌ مفزعٌ فور سماعه صوت خطواتها. لم يعد بإمكانه النظر إلى مشيتها المتثاقلة اللامبالية، ولا حتى قادرًا على تحمّل رباطة جأشها الباردة الصامتة. وبمجرد أن يفكّر فيها، بصوتها الأجشّ وشعرها الدهني، ومشاعرها البليدة الحيوانية القاسية يسيطر عليه الاشمئزاز، وكان غضبه ينصبّ أساسًا على نفسه، لأنه فقد ما يلزمه من قوّة كي يكسر عنوةً ذاك القيد الذي يربطهما سويًّا كحبل ويكاد يخنقه. وفي نهاية المطاف لم يجد أمامه سوى مخرجٍ واحدٍ ألا وهو الفرار، فأعدّ حقيبته خفيةً دون أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة، مكتفيًا بترك ورقةٍ خلفه كان قد كتبها على عجل وذكر فيها أنه سافر لزيارة بعض الأصدقاء في كارينثيا.[1]

(1) مقاطعة جنوب النمسا.

ظلّ البارون بعيدًا طوال الصيف، ولم يعد إلى البيت إلاّ مرّةً واحدة عندما استدعوه إلى فيينا من أجل موضوع عاجل يتعلّق بإرث زوجته المتوفّاة. وقد فضَّل حينها أن يأتي بهدوء ويمكث في فندق، دون أن يرسل كلمة واحدة إلى طائر الشؤم الذي ينتظره في منزله. ولم تعلم كريسينز بأمر حضوره مطلقًا لأنها ببساطة لم تعد تتحدث مع أحد، مؤثرة الجلوس طوال اليوم في المطبخ بوجه كئيب دون أن تفعل شيئًا، والذهاب إلى الكنيسة مرتين أسبوعيًّا بدلاً من مرة واحدة كعهدها فيما مضى، واستلام التعليمات والنقود من محامي البارون لسداد الفواتير.. وخلاصة القول إنها لم تتلقّ أخبارًا عن سيّدها ولا هو كتب إليها أيّ رسالة، لتظلّ صامتةً في مكانها ويزداد وجهها صلابةً ونحافةً وتعود حركاتها إلى ما كانت عليه من تخشّب، قاضية عدة أسابيع في حالة غريبة من الانتظارِ الجَلِد.

ولكن بحلول الخريف أجبرتْ بعضُ شؤون العمل العاجلة البارونَ على قطع إقامته في الريف والعودة إلى شقّته، فكان أن توقّف عند مدخل البناية متردّدًا، إذ أنّ قضاء شهرين صحبة أصدقائه المقرّبين جعله ينسى قدرًا كبيرًا ممّا حدث، وها هو مرّةً أخرى على وشك مواجهة كابوسه مجسّدًا أمامه في هيئةٍ محسوسة... عليه أن يواجه ذاك الشخص الذي قد يكون شريكه في الجريمة. عاودته نوبة الشعور بالغثيان كما حدث من قبل جاعلة إيّاه يتقيأ. ومع كلّ خطوةٍ يخطوها على السلالم ببطء متزايد، كانت تلك اليد الخفيّة تعتصر عنقه وتضيّق عليه الخناق بقبضتها الحديديّة. وفي نهاية الأمر احتاج إلى

بذلِ مجهودٍ كبيرٍ من أجل جمع شتات نفسه، وإجبار أصابعه المتيبّسة على إدارة المفتاح في القفل.

وما إن سمعَتْ كريسينز صوت المفتاح حتّى هرعَتْ من المطبخ في دهشة. وإذ رأته، وقفت في مكانها شاحبةً لوهلة، ثم انحنت لتحمل حقيبة السفر التي وضعها على الأرض وكأنّها تتهرّب من مواجهته دون أن تقول كلمةَ تحيّةٍ واحدة، وفي المقابل لم يتفوّه هو أيضًا بشيء. حملَتْ حقيبته إلى غرفته في صمت، وتبعها بصمت مماثل. ثمّ انتظر هامدًا وهو يُركّز نظره على النافذة كي لا تقع عيناه عليها، وحال مغادرتها الغرفة هبّ إلى المفتاح وأقفل الباب بسرعة.

هكذا كان لقاؤهما الأوّل بعد مرور عدة أشهر...

ومثلما لبثت كريسينز تنتظر البارون، لبث هو يُراقب نوبات الهلع المخيفة التي تحلّ به عند رؤيتها ليرى هل ستنتهي أم لا. لكنّها لم تنتهِ حتى قبل أن يراها، إذ كان مجرّد وقع أقدامها على أرضيّة الردهة وهي تخطو خارج الغرفة كافيًا لأن يبعث فيه شعورًا بالتوتّر. لم يتناول فطوره قطّ، وواظب على مغادرة المنزل سريعًا كلّ صباح دون أن يتفوّه بكلمة، ثمّ يبقى في الخارج حتّى وقت متأخر من اللّيل تجنبًا للقائها. وإذا اضطرّ إلى إبلاغها تعليماته القليلة فعل ذلك وهو يشيح ببصره عنها. وبالتوازي مع ما سلف كان الاختناق يقطع أنفاسه كلّما حام شبحها في الغرفة نفسها.

وأثناء ذلك كانت كريسينز تجلس في صمتٍ على مقعدها الخشبي طوال اليوم. ما عادت تطهو أيّ شيء لنفسها ولا حتّى

تتحمّل الطعام، وانقطعت عن صحبة البشر. اكتفت بجلوسها ذاك وفي عينيها نظرةُ خجلٍ منتظرةً أوّل صفّارة من سيّدها ككلبٍ مُعاقب يعلم أنه قد فعل شيئًا سيّئًا. لم يستطع عقلها البليد أن يفهم ممّا حدث سوى أنّ سيّدها كان يتفاداها وأنّه لم يعد يريدها. ذاك كل ما فهمته، وقد خلّف فيها أثرًا عميقًا.

في اليوم الثالث بعد وصول البارون رنَّ جرس الباب. كان ثمّة شيخ تبدو عليه رباطة الجأش أشيب الشعر وحليق الذقن يقف عند الباب حاملاً حقيبةً في يده. ولقد كادت كريسينز تصرفه لولا أن هذا المتطفّل أصرَّ على أنّه خادمُ المكانِ الجديدُ، وعلى أن سيّدها طلب منه أن يحضر في العاشرة صباحًا، طالبًا منها إعلامه بوصوله. شحب وجه الخادمة تمامًا ووقفت هناك للحظة وأصابعها المتيبّسة ممدودة في الهواء، ثم سقطت يدها كطائر وقع اصطياده. «من هذا الاتجاه»... ذاك كلّ ما قالته للرجل الذي انتقلت إليه الدهشة، ثمّ توجّهت صوب المطبخ وأغلقت الباب خلفها.

أقام الخادم في المكان. ومن ذلك اليوم فصاعدًا لم يعد على سيّدها أن يتحدّث إليها إطلاقًا، إذ غدت كلّ الرسائل التي يودّ إبلاغها بها تُنقل إليها عبر الخادم العجوز الهادئ. بل إنّها لم تعد تعلم ما يجري في الشقّة... كان كل شيء يتدفّق عليها كموجةٍ باردة تجتاح الصخر.

استمرت تلك الطريقة الجائرة في التعامل لأسبوعين، مستنزفة كريسينز كالوباء. فنحُف وجهها وأصابها الهزال، وبدأ لون شعرها فجأةً يميل إلى الرماديّ عند صدغيها، وتجمّدت حركاتها كليًّا.

واستمرّت في قضاء كامل وقتها تقريبًا جالسةً على مقعدها الخشبي، وكأنّها هي نفسُها قطعةٌ متيبّسة من الخشب، تحدّق في النافذة بشرود، وإن اضطرّت إلى عمل شيء أدّته باهتياجِ شخصٍ في حالة غضب هستيري.

خلال ذَيْنك الأسبوعين ذهب الخادم إلى غرفةِ سيّده، ومن هيئته اللبقة وطريقة انتظاره في الغرفة أدرك البارون أنه يودّ إخباره بشيء خاصّ. فإذا بالخادم يشتكي من الوجه النكِد لتلك الكتلة التيرولية، على حدّ وصفه لها بازدراء، مقترحًا على سيّده أن يطردها. وإذ شعر البارون ببعض الإحراج تظاهر أوّل الأمر بتجاهل المقترح. ولكنّ الخادم الذي تعوّد الانحناء ومغادرة الغرفة حال إفراغه ما في جعبته، توقّف بعنادٍ في تلك المرّة بالذات وأصرّ على رأيه، مُتبعًا ذلك بتمتمة في تعبير غريب وغير ملائم راجيًا ألاّ يظنّ سيّده به سخفًا، وهو يُعلن ما لم يستطع أن يقوله بطريقة أخرى: إنّه خائفٌ منها. فذلك الكائن المنطوي على نفسه لا يُحتمل البتّة، وهو يعتقد جازمًا أنّ البارون لا يُدرك خطورة الشخص الماكث في بيته.

جفل البارون على نحوٍ غريزيٍّ من تحذير خادمه، وتساءل: ما الذي يعنيه هذا الرجل بقوله ذاك؟ بل ماذا يحاول أن يقول؟ ولقد سعى الخادم إلى التخفيف من وقع كلماته، فقال إنّه لا يستطيع الإشارة إلى أي شيء مؤكّد، وإنّ كلّ ما لديه شعور بأنّ هذه المرأة تشبه حيوانًا خطِرًا يمكنه إيذاء أيّ شخصٍ بسهولة. ولكنّه شدّد في الآن نفسه على أنّه حين توجّه إليها بالأمس ليبلغها أمرًا رمق في عينيْها

نظرة غير متوقّعة. حسنًا، لا يمكن قول الكثير عن نظرةٍ مّا، لكنّها بدت له بنظرتها تلك عازمةً على جزّ عنقه. ومن حينها وهو يشعر بالخوف منها، بل إنّه صار يخاف حتّى من لمس الطعام الذي تعدّه. ثمّ ختم كلامه قائلاً: «سيّدي... إنّك لا تتخيّل الأمر... لا تتخيل كم هي خطِرة! إنها لا تتحدّث.. ولا تقول الكثير، لكنّي أعتقد أنها قادرة على القتل». ارتعب البارون وألقى نظرةً سريعةً على الرجل. هل سمع شيئًا مّا محدّدًا؟ وهل نقل له أحدهم شكوكًا بعينها؟ شعر بأصابعه ترتعش، فترك سيجاره كي لا يُظهر رعشة يديه، ولكن وجه الرجل المسنّ لم يظهر عليه ما يَشي بأنه يشك في شيء. لا... ليس يعلم شيئًا. وبعد لحظة تردّدٍ استجمع البارون شتات نفسِه فجأةً وقد قرّر ما ينبغي عليه فعلُه وحسم أمره قائلاً: «حسنًا... انتظر قليلاً، وإن ظلّت غير لطيفة معك سوف أنذرها».

انحنى الخادم وغادر واستلقى البارون شاعرًا بالراحة. كان أيّ تفكير في المخلوق الغامض الخطِر كفيلاً بإفساد يومه. لذا من الأفضل أن يقوم بذلك وهو بعيد عن المكان، إبّان احتفالات عيد الميلاد مثلاً. ولكنّ مجرد خاطر التخلّص منها نقله إلى حالة أخرى. «نعم.. سيكون التفكير عندها أفضل.. (حدّث نفسه ثانية) في عيد الميلاد حين أكون بعيدًا عن هنا».

ولكن في اليوم التالي وما إن ذهب إلى مكتبه بعد العشاء مباشرةً حتّى سمع طرقًا على بابه، فرفع عينيه من على صحيفته وقال دون تفكير: «ادخل». وحينها فقط انتبه إلى تلك الخطوات المريعة شديدة

الوطأة التي كانت تراود أحلامه باستمرار فقفز من مكانه... نظر إلى وجهها الخشن المرتعش الذي يعلو جسدها النحيل القاتم فإذا هو شاحب وأبيض كالطبشور. شعر ببعض الشفقة المُختلطة بحالة من الهلع من خطوات المخلوقة القلقة، ومدى انسحاقها، وطريقة وقوفها بخضوع عند حافة السجادة. وكي يخفي شدّة ارتباكه حاول أن يبدو خاليَ البال وهو يقول: «حسنًا... ما الأمر يا كريسينز؟» لكنّ نبرته لم تبدُ دافئةً سعيدة كما أراد لها، إذ خرج السؤال بنبرةٍ عدائيّةٍ بغيضةٍ رغم إرادته.

لم تتحرك الخادمة قيد أنملة، بل ظلّت تُحدِّق في السجادة. وبعد عناءٍ شديدٍ كذاك الذي يقترن بمحاولة المرء دفع جسمٍ ثقيل بعيدًا عن قدميه، نجحت في إلقاء بعض الكلمات: «هذا الخادم يقول إنّ سيدي ينوي طردي».

شعر البارون بإحراجٍ محضٍ فهبّ واقفًا وهو الذي لم يتوقّع أن يحدث الأمر بتلك السرعة. بدأ في التحدّث بتلعثمٍ قائلاً إنّه واثقٌ من أنّ الخادم لا يقصد ذلك، وإنّ عليها أن تكون على وفاق معه حتّى وإن صدرت عنه أقوال غير متوقعة.

ولكن كريسينز ظلّت تحدّق في السجّادة بسماجة، حانية كتفيها قليلاً ومطأطئة رأسها بمرارة وعناد كالثور، تاركة إيّاه يغمرها بشتّى نظرات العطف في انتظار كلمةٍ واحدة لم تأت. وعندما التزم الصمت التام وقد شعر بالإنهاك وتراجع عن أداء الدور الوضيع الذي كان مجبرًا على أدائه، والمتمثّل في محاولته الفوز برضى خادمته، واجهت

ذلك بالإبقاء على عنادها وصمتها. ثمّ انتهت إلى قول شيء آخر: «أريد فقط أن أعرف ما إذا كان سيّدي قد قال للخادم إنّه سيطردني».

وبطريقةٍ مّا فهمت الأمر.. فهمته رغمًا عنها بقسوة وعنف، أمّا البارون فما إن بلغ الحافة حتّى شعر بالعاصفة الوشيكة. أهي تهدّده؟ أهي تتحدّاه؟ اختفى جبنه فجأةً، وكذلك شفقته، وتحوّلت مشاعر الكراهية والاشمئزاز المتراكمة داخله لأسابيع إلى رغبة ملحّة في إنهاء الأمر. فغيَّر فجأةً من نبرة صوته كليًّا، وتبنّى الطريقة الباردة المباشرة التي تعلّمها إبّان عمله بالوزارة وأكّد صحّة ما سألت عنه، وكأنّه غير مهمّ على الإطلاق، مُدّعيًا أنّه في حقيقة الأمر قد منح الخادم الصلاحية المُطلقة لينظّم الخدمة داخل البيت بالطريقة التي تروق له، وأنّه من الناحية الشخصيّة يتمنّى لها كلّ خير، مُضيفًا أنّه سيحاول إقناع خادمه المدعوّ أنطوان بأن يصرف نظره عن فصلها من العمل. ولكن إن هي أصرّت على عدائها للخادم، فسيكون مضطرًّا حينها للاستغناء عن خدماتها.

ثمّ استجمع كافة قواه حتى لا يتراجع بسبب أيّ تلميح خبيث أو إشارة متملّقة، ورفع عينيه وهو يُوجّه كلماته الأخيرة إلى امرأة افترض أنها تهدّده ونظر إليها مباشرة.

لكنّ تَيْنِكَ العينين اللّتين رفعتهما هي من على الأرض بِجُبن كانتا عيني حيوان جريح يرى القطيع الذي ينتمي إليه وهو يوشك أن يندفع من بين الشجيرات أمامه. «شش... ششكرًا يا سيدي» قالت، ثمّ انصرفت وهي تردّد في ضعف: «سس..سسأذهب.. لن أضايق سيّدي أكثر من هذا».

جرَّت نفسها ببطء دون أن تلتفت إليه حتّى خروجها من الباب بكتفيها المنكمشتين وخطواتها الخشبية المتصلّبة.

في ذاك المساء، وما إن عاد البارون من عرض الأوبرا وبدأ بتفحّص الخطابات التي وصلته من على مكتبه، حتّى لمح شيئًا غريبًا مستطيل الشكل. أشعل النور ورآها؛ كانت علبة جواهر خشبية ذات نقش ريفي أخرق، وقد فُتحت، وظهرت بداخلها كافة الأشياء التي منحها لكريسينز مرتّبةً بعناية؛ بعض البطاقات التذكارية من رحلات صيده، وتذكرتا مسرح، وخاتم فضي، ومعها كافة نقودها التي راكمت، وثمة أيضًا صورة فوتوغرافية التُقِطَتْ منذ عشرين عامًا في تيرول، تلوح فيها بوضوح وعلى نحو عفويّ عينا كريسينز الطافحتان بالنظرة نفسِها، تلك النظرة الجريحة المهزومة التي بدت عليها منذ ساعات قليلة حين خرجت من مكتبه.

أبعد البارون العلبة يراوده شعور بالخسارة. ثمّ ذهب إلى خادمه وسأله عن سرّ وجود أشياء كريسينز على مكتبه؟ فاقترح الخادم عليه أن يأتي بعدوّته على الفور حتى تجيب بنفسها عن تلك التهمة، ولكن كريسينز لم تكن في المطبخ ولا في أي مكان آخر من الشقة. ولم يُخمّن الرجلان مكانها إلاّ في اليوم التالي عندما أعلنت الشرطة عن انتحار سيّدةٍ تبلغ من العمر أربعين عامًا بإلقاء نفسها من فوق جسر إلى نهر الدانوب. فهل كان ذلك كافيًا ليعرفا المكان الذي ذهبت إليه ليبوريلا؟

ستيفان زفايغ

هل فعلها؟

تليها «ليبوريلا»

هل فعَلَها؟ هل حقًّا هو من فعَلَها؟ كذا ينبثق السؤال منذ الأسطر الأولى لواحدة من أجمل القصص القصيرة التي كتبها ستيفان زفايغ فيشدّ حبل التشويق إلى أقصاه مُيسّرًا عمليّة الولوج إلى عالم سرديّ بسيط ومُعقّد في آن، بسيط من حيث عدد الفاعلين، ومعقّد في رسمه لملامح شخصيّاتهم لا سيّما وأنّ بين البشر كلبًا هو قوام الأحداث وعمادها، ومثال الصراع المُحتدم بين النفس ونوازعها من جهة والواقع وإملاءاته من جهة ثانية، وفي مثل ذاك الصراع قد ينزل المرء إلى مرتبة الحيوان في سلوكه الغريزيّ وقد يلبس الكلبُ ثوب التناقض الإنساني فيجمع بين الصلف والخضوع وبين النقمة ورهافة الحسّ، ليبقى السؤال الأهمّ هل بوسعه أن يتجاوز محدوديّة إدراكه ويتمكّن من التخطيط والتدبير؟ وهل حقًّا هو من فعَلَها؟

رمزي بن رحومة

